ألف قصة
1
ڤالهالا
ألف بطل
إسلام علي

ثالها: ألف بطل

(رواية قصصية)

إسلام علي

تابعوا على t.me/book100100

ڤالهالا: ألف بطل

إسلام علي

لوحة الغلاف: شادي سيد عتاب

إخراج الغلاف: محمد مجدي يوسف

الأغلفة الداخلية: يوسف السيد زيدان

تدقيق وتحرير: هبة النجار

الإخراج الداخلي: إسلام علي

رقم الإيداع: 2018/23336

الترقيم الدولي: 978-977-6695-08-5

مدير النشر: محمد الدواخلي

المدير الفني: إسلام علي

المدير العام: محمد مجدي أبو الهنا

facebook.com/FantasiansPub

Fantasians4@gmail.com

002-01094461896

للتوزيع في مصر والوطن العربي: 002-01090752916

صفحة رابطة فانتازيون: facebook.com/Fantasians

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ودار فانتازيون للنشر والتوزيع. وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر أي جزء من هذا العمل، سواء إلكترونيًا أو فوتوغرافيًا أو أي شكل آخر دون تصريح كتابي موثق من الناشر، يعرض مرتكبه للمساءلة القانونية.

إهداء للأمل
لكل الحالمين حول الأكوان
ولكل من آمن بي

البحيرة المتجمدة

بينما المجموعة تلتقط الصور التذكارية استعدادًا للرحيل، إذ سقطت (ماري) الرقيقة في البحيرة المتجمدة. بسرعته المعهودة بادر (چان بيل) بالقفز على حافة البحيرة ممسكًا بيدها يحاول رفعها إلى الأمان من جديد، لكنها كانت أثقل مما توقع. لحظات طويلة من المحاولة الفاشلة مرت، حتى كاد اليأس يتمكن من الجميع، لولا أن استطاع (چان) بمعجزةٍ ما رفعها وسحبها إلى الأمان أخيرًا، لتبدأ إجراءات التدفئة والتهنئة على التوازي. ويومها ربح (چان) أكثر من لقب (البطل).

رغم ذلك عادت الرحلة ناقصةً فردًا! لم يجد أحد (أندي) الخجول في أي مكان، ولم يعرف أحد حتى متى اختفى بالضبط. عثر الصيادون على جثته المتجمدة في البحيرة بعدها بأعوام، وكان ذلك أثناء احتفال (چان) و(ماري) بمولودهما الأول.

(تمت)

أطبقتُ شاشة اللابتوب على لوحة مفاتيحه ببطء، ليطالعني من خلفها انعكاس صورتي البائسة في المرآة.

ألملم شعري المتناثر بعشوائية عن جانبي رأسي، مُحاولًا فصل عينيّ عن ذهني العاني بتفكّره الخاص.

لطالما أثّرت فيّ قصص التضحية كما لا تفعل غيرها؛ لا يمكن لفعل بشري آخر أن يكافئ التضحية نبلًا وسموًا.

أقوم من على الكرسي إلى السرير بجانبه، يخدش أعصابي ذوي الأوراق وذوات الأقمشة المتراكمة عليه. أكبشها فأنقلها إلى الكرسي الأول، ثم ألقي بجسدي على السرير بعينين تكافحان السقوط في غياهب النوم.

آوت عيناي إلى شعاع نور الصباح المتسلل من النافذة الصغيرة أعلى سريري، تلتمس عونه فينالها تأنيبه على وداع وقتَ لقاء.

لعلي أريد النوم الآن أكثر من أي شيء؛ على الأقل هروبًا من كل أشباح الفشل والذكريات السوداء وكل المواعيد المؤجلة، التي تُغير متدافعة على ذهني في ميقاتها المحموم.

هذه هي مرحلة (الكرى) المقدسة، حيث يسيطر النعاس متأنيًا، فتتيه بين النوم والاستيقاظ؛ ترى الأحلام متجسدةً أمامك في أركان غرفتك والسقف سماءً لها. أروع الأفكار الإبداعية تأتي في هذه المرحلة.

لكني لا أريد الانتقال قبل استكمال تفكري. ما تزال فكرة (التضحية) مسيطرة على تفكيري، أتغزل في تجليات البطولة فيها. الساخر أنني لم أكن يومًا شجاعًا كفاية لأُقدِم إحداها، ولعل أقصى ما قد يربطني بالتضحية هو أن أضحي بوحشين لأستدعي (ساحر الظلام) في لعبة (يو-جي-أوه).. آه، يا لي من نكرة متحاكية!

هنا ومضت في عقلي تلك الفكرة من أرشيف خيالاتي!

عالمٌ خيالي خاص لكل من قدّموا تضحيةً عظيمة في القصص الخيالية ولم يتم تكريمهم كما يجب. شعوري بالفشل والتخاذل دفعني للتحمس لتنفيذ الفكرة فورًا؛ فلعل تكريمي لأولائك الأبطال يغفر لي تخاذلي أنا عن تقديم ما قدموا، وهذا أضعف الإيمان.

أمسكت برأسي أحاول السيطرة على خيالي في تلك المرحلة الحرجة. أحتاج لدقيقتين فقط قبل أن يغلبني النعاس... هل سألحق؟؟ هل....؟؟

...

أشرقت الشمس على أرض خضراء بهية، فتراقصت أوراق الأشجار فرحةً بضيائها، عازفةً لحن الحفيف الساحر.

اخترق النور الجفون لطيفًا، ففتح (أندي) عينيه ببطء، وتحركت مقلتاه هادئتين تستكشفان المعالم من حوله، قبل أن تبرق نقطة ما في وعيه، فينتفض معتدلًا محدقًا!

أين هو؟؟ هذا المكان أبعد ما يكون عن كل مكان رآه وزاره في بلاد لم يغادرها!

نظر إلى ملابسه.. إنها مبتلة!

مبتلة!!

قبض على كتفيه مرتجفًا من وقع فكرةٍ أغارت على إدراكه، وسالت من عينه دمعة تبخرت قبل أن تدرك وجنته!

ملابسه كذلك تجف بسرعة غريبة رغم اعتدال الجو، وكأن الشمس هنا سحرية!

لابد أن هذه هي الجنة. لقد مات وهو الآن في الجنة!

سمع صوتًا خافتًا من خلفه، فالتفت، ليرى محاربًا نورديًا يعتدل جالسًا بجسد مضرج بالدماء، وعينين ذاهلتين.

سارع يستكشف الأرجاء من حوله، ليدرك وجود آخرين، كثيرين، متعددي الهيئات والألوان. ثمة شيء فائق العجب في هذا كله.. هل هذه الجنة فعلًا؟؟!

تصاعد في الأرجاء فجأة صوت نحنحة حادة، فيمّم (أندي) والجميع من حوله أنظارهم شطر قمة ذاك البرج العالي؛ وهنا أيقن (أندي) أن هذه ليست الجنة.

جسد ضئيل، أطراف قصيرة، وجه كروي يحمل عينين نجميتين وأنفًا رفيعًا بشكل عجيب طويلًا بشكل أعجب كأنه عصا قصيرة مدببة، الأذنان مسدستان، والفم واسع مليء بأسنان رفيعة مسنونة!

وقف الكائن العجيب طافيًا في الهواء فوق قمة البرج، وعدّل من وضع قبعة السحرة التي يرتديها على رأسه، ثم صاح بجذل:

«مرحبًا بكم جميعًا في أرض التكريم.. تكريم الأبطال الأشجع والأنبل على الإطلاق!»

ران صمت تام على الأرجاء، وتعلقت العيون الحائرة جميعًا بالكائن العجيب، الذي احمرّ وجهه حرفيًا، وغمغم:

ـ «يا للإحراج! لماذا لم تصل بعد أيها اللعين!؟»

ومضت بقعة ضوء بجانبه في تلك اللحظة، لتتحول إلى شاب عشريني مرح يرتدي زيًا ملكيًا فانتازيًا، هبط أرضًا قائلًا بابتسامة ماكرة:

ـ «اللعين وصل بالفعل!»

ضحك الكائن قائلًا بحرج هزلي:

ـ «صديقي العزيز (أمير)! اشتقت إليك يا رجل!»

بمكر: «تقصد (يا لعين)»

ـ «اسمع.. لا تصنع عالمًا مليء بالضيوف ثم تأتي متأخرًا مرة أخرى!»

- «آسف.. كان جاهزًا في سيالي الذهني منذ فترة، لذا اكتمل تكوينه قبل اكتمال انتقالي.. وعمومًا لا بأس؛ لم أتأخر كثيرًا»

ونفض غبارًا وهميًا عن ثيابه، وهو يتطلع إلى كل العيون المذهولة بالأسفل، ثم ابتسم وتنحنح بتبسط.

- «كما قال عزيزي (فليش)، مرحبًا بكم جميعًا في أرض التكريم.. أرض الأبطال الأشجع والأنبل على الإطلاق!»

وأدار نظره بين ضيوفه ساردًا:

- «لطالما ضايقني وآرقني أن أصحاب التضحيات يُنسون دومًا، خصوصًا تلك التضحيات خارج دائرة الضوء المقدسة عند المشاهدين والقراء.. لذلك فكرتُ في بناء هذا العالم وهذه الأرض لأولائك الأبطال.. لكل واحد منكم؛ عسى أن أوفيكم جزءًا مما تستحقون، ولتكون هذه الأرض جنةً خاصةً مستحقة لأعظم وأنبل الشخصيات الخيالية»

وتوقف للحظة متأثرًا بمشاعره، ثم أكمل:

- «وها أنتم هؤلاء في عالمكم الخاص.. فاسعدوا واستمتعوا كما يجدر لكم.. مرحبًا بكل بطل عظيم منكم في أرض التكريم»

أنهى كلماته متأثرًا، وتطلع إلى العيون المنتبهة بالأسفل، ليُصدم بآخر ردود فعل توقعها!

كان منهم من تكوّم على الأرض دافنًا وجهه بين كفيه.. آخر سقط على ركبتيه فاقدًا النطق.. بينما البعض ظل متطلعًا إليه بجمود.. وأفضل ما حصل عليه كان ابتسامات امتنان سرعان ما يتحول أغلبها إلى مرارة وألم.

اقترب منه (فليش)، وقال بتوتر:

- «هذا ليس ما توقعته إطلاقًا، صح؟»

تابعوا على t.me/book100100

ارتجف (أمير) توترًا، وقال:

- «بلى....»

لاحظ (فليش) رجفته فاستُفز، هتف فجأة:

- «ما بكم!؟ أهذا ما يستحقه منكم (أمير) على تكريمكم!؟»

فزع الثاني لحدته، وبينما حاول إصلاح الموقف، أتت تلك الهتفة من الأسفل مستنكرة:

- «أتهزأ بنا!؟ أي تكريم!؟ ما هذه الأرض إلا (فالهالا) أخرى كاذبة!»

تحفزت أطراف (فليش) حنقًا، والتفت إلى (أمير) المشدوه يسأله:

- «ما هي (فالهالا) تلك؟؟»

نطق (أمير) مصدومًا:

- «هي أرض الميعاد في الأساطير النوردية. (الفالكيري) الساحرات يطرن إلى أراضي المعارك، لانتشال جثث المحاربين الذين ماتوا بشجاعة، فيحملنهم إلى أرض (فالهالا) السماوية، حيث يتم إحياؤهم من جديد مكافأةً لهم على شجاعتهم»

ومُحدقًا في جسد المحارب النوردي الغاضب وقد نالت منه الجروح ما نالت، يُكمل:

- «لكنها ليست جنةً حقيقية؛ فبعد أن يُحيا المحاربون فيها كـ(إنهريار)، يقضون نهار كل يوم في قتال حتى الرجل الأخير، ليعاد إحياؤهم ليلًا للخمر والمتعة حتى القتال الجديد في الصباح.. وكذا تستمر الدائرة حتى تحين معركة (راجناروك) النهائية، فيقاتل الإنهريار مع (أودين) ومصاف آلهته المزعومين ضد قوى الشر، لتنتهي المعركة بفناء الجميع!»

وسالت دموعُ قهرٍ من عينيه مكملًا:

- «وتخيل أنك محارب بطل تُفجع بأكذوبة (فالهالا) حتى لترى في (راجناروك) الخلاص الحقيقي والموت المريح.. فقط لتجد نفسك وقد أُحييت من جديد بـ(فالهالا) جديدة! لا شك أن هذا هو شعور ذلك المحارب النوردي الآن.. ومن يعلم ما قد يكون شعور البقية!»

فشل (فليش) في إيجاد رد، بينما تطلع (أمير) إلى مظاهر فشله المتجلية على الوجوه والأجساد بالأسفل، خاتمًا:

- «لقد فشلتُ يا (فليش).. وللمرة المليون كنتُ ساذجًا أحمق؛ فهؤلاء الأبطال لم يقدموا التضحيات سعيًا لتكريم واحتفاء، وإنهما لن يمنحاهم إلا بؤسًا ووحدة، واجترارًا لذكريات يطفئ الموت آلامها»

ظل (فليش) على صمته للحظات، ثم هتف به:

- «لماذا تحكم على الأمر بالفشل وكل المقادير ما تزال في يدك!؟ لقد صنعتَ عالمًا للأبطال ولم يناسبهم.. استغل فرصة وجودهم وابحث في داخلهم عما يناسبهم»

وأخفض صوته غامزًا: «وخاطبهم من وسطهم لا من الأعلى»

دفعت كلماته بعض القوة في قلب (أمير)، غير أن نظرات منه للملامح الكسيرة في الأسفل نثرت مزيدًا في اليأس داخله، وقال:

- «لا يبدون مستعدين للكلام حتى!»

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وقفز في الهواء، لتظهر غيمة صغيرة من العدم يهبط فوقها، فتتحرك به هابطةً بانسيابية نحو الأرض الخضراء، ليقفز برفق على العشب النضر، ثم يتلفّت فيما حوله باحثًا عن طرف خيط.. بداية مناسبة.

لحظات وأشرق وجهه فرحًا، وركض مسرعًا نحو (أندي) المتكوم في حضن شجرة كبيرة، فنزل القرفصاء أمامه وقال:

ـ «مرحبًا، (أندي)»

منحه (أندي) ابتسامة منكسرة صامتة، فاندفع (أمير) يقول:

ـ «أنت من القلائل الذين أعرفهم هنا. اسمعني.. من الواضح أنني أخطأت الطريق بإحضاركم هنا.. وأنا أريد تصحيح خطئي.. لذا أخبرني عما تشعر به الآن»

ابتسم (أندي) بامتنان، وخرجت الكلمات من حلقه ضعيفة مختنقة:

ـ «لا أعرف.. أنا لا أعرف. حين ألقيتُ بنفسي في البحيرة المتجمدة لم أفكر أبدًا في الآتي. والآن.... أنا لا أعرف حقًا.. أشعر بخواء تام، وأتمنى لو أنني انتهيتُ عند النهاية الميتة ولم أُبعث هنا بتاتًا. حين تموت لا يعود فارقًا معك ما آلت إليه الأمور لأن ذهنك قد مات معك. أما وقد عدتُ إلى الحياة، فأنا أكاد أجن تفكيرًا فيما يكون قد حدث بعد موتي.. الأمر شنيع جدًا، حتى أني لأشعر أنني لو عدت إلى الموت مرة أخرى، لظل ذهني حيًا يتعذب بالتفكير بلا موت.... أنا آسف يا (أمير).. آسف لكوني فشلًا مؤلمًا لك وأنت أردت لي السعادة.. لكن.....»

وعجز عن الإكمال، فربت (أمير) على كتفه مهونًا، وقال:

ـ «نعم.. جنة بصناعة بشرية لا يمكن أن تكون، حتى ولو لشخصيات خيالية!»

واعتدل واقفًا من جديد، ففرك عينيه وجبهته في محاولة لتفريغ توتره، ثم نظر إلى (فليش) الذي كان طافيًا بجواره في تلك اللحظة وقال:

ـ «لم يمر وقتٌ كافٍ لأستيقظ الآن، لكن يمكنني الانتقال إلى حلم آخر عادي.. ما رأيك؟؟»

زفر (فليش) في تأسٍ، ثم فرد أصابعه لتظهر داخل كفه عصا زرقاء، أخذت في الاستطالة حتى صارت ثلاثة أضعاف طوله، وحينها قبض عليها بأصابعه

وقال:

- «رأيي....»

ثم انهال بها بقوة على رأس (أمير) هاتفًا:

- «رأيي أن تقتلع بذور التباؤس من داخلك، وتفكر في كيفية إصلاح كل شيء إلى أفضل مما أردت!»

قام (أمير) مقرنحًا، واستند على شجرة (أندي) ناظرًا لـ(فليش) وقائلًا:

- «شكرًا (فليش).. أعلم أنك استمتعت بهذا أيضًا»

ضحك (فليش) بجذل: «كما تعلم، سموك»

استعاد (أمير) توازنه، ثم وقف وتنحنح يستجمع شجاعةً لإعادة المحاولة، نظرة أخيرة لـ(فليش) فمنحه إبهامًا مشجعًا.. تنهيدة عميقة، ثم علا صوته يخاطبهم من أسفل:

- «حسنًا.. بالتأكيد أنا لم أهتم بصناعة (فالهالا) جديدة؛ فقط عنيت بتكريمكم جميعًا كما استحققتم وتستحقون.. لا توجد شروط للتكريم ولا قواعد أو معارك نهائية.. أنتم هنا لنقوم بتكريمكم والاحتفاء ببطولتكم.... صراحةً لم أضع بالحسبان طبيعة استجاباتكم المتوقعة للتكريم، لكن دعوني أصحح هذا.. أنا مهتم حقًا بتصحيحه.. ولعلي كذلك أحتاج لأن أفعل»

تقدم رجل أربعيني أشقر أوروبي الملامح هادئها إلى (أمير) ورفيقه الصغير، فابتسم وقال:

- «ولِمَ لا تجعل الأمر أكبر من ذلك؟»

اقشعر (أمير) يتعلق بقشته في بحر الانزواءات ذاك، وسارع يسأل:

ـ «كيف؟؟»

ابتسم الأربعيني وقال:

ـ «لقد جمعتَ هنا محفلًا من مقدمي التضحيات النبيلة.. لِمَ لا تستمع -ونستمع جميعًا- لهم؟ نستعرض قصصهم جميعًا؛ عسى أن يجد أحدنا في قصة الآخر عزاءً وسندًا؟ أنا واثق أن الأمر سيكون مثمرًا أكثر بمراحل من تكريم واحتفاء بالبطولات»

أشرق وجه (أمير) حد الذهول، وأمسك بيد الأربعيني يشكره بامتنان جم، فاتسعت ابتسامة الأخير مبادرًا:

ـ «هيا.. فلتبدأ أنت»

صعق (أمير) مرددًا: «أنا!؟»

وزفر بابتسامة متأسية، ليقول:

ـ «لستُ أهلًا لذلك يا سيدي.. أنا مجرد مُضيف.. أنتم أصحاب المقام»

منحه الأربعيني نظرة مطولة، ثم ربت على كتفه وقال:

ـ «كيف يمكنك التيقن من ذلك!؟»

وقبل أن يجيب عاجله بالتالي:

ـ «ما هو تعريف (التضحية) بالنسبة لك يا (أمير)؟»

ارتبك (أمير)، ولثوان بدا كما لو السؤال أفقده ذاكرته وقدرته على التعبير سويًا. مال الأربعيني بشقه العلوي ليسأل الثاني:

ـ «ما رأيك أنت يا (فليش)؟ كيف يمكن تعريفها؟»

ارتبك (فليش) للحظات مفكرًا، ثم كوّن فكرة مبدئية ما فأجاب مرتجلًا:

ـ «التضحية هي أن تقدم شيئًا تحتاجه دون مقابل.. وهذا ما يفرقها عن

مجرد الهبة أو الصدقة؛ ففي التضحية أنت لا تقدم شيئًا زائدًا عن حاجتك، بل تقدم حاجتك ذاتها، ولهدف لست ضمن نطاق فائدته.. أنت تضحي من أجل شخص آخر، أو كيان آخر، أو فكرة ما، أو هدف سام»

اتسعت عينا (أمير) انبهارًا، وقال:

ـ «يا له من تعريف عبقري يا (فليش)!»

ـ «حقًا!!؟»

ـ «حقًا!»

عاد وجه (فليش) للاحمرار حرفيًا، خجلًا هذه المرة، واستعد للشكر على الإطراء، حين صدرت عن أحدهم زفرة ساخرة، فالتفت المضيف وصاحبه إلى مصدرها، ليجدا شابًا ثلاثينيًا يجلس على صخرة قريبة، أشاح بوجهه عنهما بسرعة لدى نظرهما إليه.

تحرك نحوه (أمير) سائلًا:

ـ «ما الذي لم يعجبك في التعريف بالضبط؟؟»

اهتزت شفتا الشاب مع تشنج فكيه الكاتم للكلمات، فكرر (أمير) السؤال عن عمد ضاغطًا على كل كلمة:

ـ «ما - الذي - لم - يعجبك - في - التعريف - بالضبط؟؟»

انفجر الشاب متكلمًا بحدة فجأة:

ـ «(ولهدف لست ضمن نطاق فائدته).. لو كانت هذه العبارة شرطًا حقيقيًا لوجب أن نُخلي (فالهالاك) هذه تمامًا من كل الموجودين.. في الواقع لا أحد يضحي من أجل لا شيء.. أقصد لا شيء يفيده بشكل أو بآخر.. لا توجد تضحية خالصة إلا في القصص الخيالية.. آآأقصد ولا حتى في القصص الخيالية»

أذهل الرد (أمير) تمامًا، غير أنه وجد فيه تحديًا مستفزًا، فأسرع يكيل ردًا قويًا بدوره:

ـ «ما الذي تعنيه بهذا الاتهام القاسي!؟ في هذا المكان أناس ضحوا بحياتهم ذاتها من أجل غيرهم.. ماذا قد ينتظرون فائدة لذاتهم من تضحية بالذات ذاتها!!؟»

وراق له الجناس المكرر في عبارته، لكنه كتم ذلك في انتظار رد خصمه، الذي أطلق زفرة ساخرة أخرى أكثر عصبية هذه المرة، ثم قال متهكمًا:

ـ «كل الأهداف النبيلة تخفي في أعماقها مآرب شخصية.. ولا يجب أن تكون مباشرة. حين تضحي لأجل أن يراك الناس مضحيًا فهذا هدف شخصي، وحين تضحي من أجل أن تنال الجنة فهذا هدف شخصي، حتى حين تضحي من أجل من تحب فهذا هدف شخصي.. نحن لسنا ملائكة لنضحي دون مقابل؛ دائمًا هناك هدف شخصي صغير مختبئ في الأعماق السوداء من قلبك»

وأطلق ضحكة ساخرة عصبية قصيرة.

جزّ (أمير) على أسنانه حانقًا، واستجمع ردًا سريعًا فقال:

ـ «أو أنك أنت من يحاول إقناعنا بشيء فشل في إقناع نفسه به فقط.. هناك دائمًا من يرفضون الاعتراف بالخير المطلق رغم استعدادهم التام لاعترافهم بالشر المطلق»

والتفت إلى (أندي) مستشهدًا:

ـ «ما رأيك في هذا الكلام يا (أندي)؟؟»

انزوى (أندي) داخل الشجرة أكثر وأجاب بخفوت:

ـ «لا رأي لي»

ـ «أنا رأيي أنه يحتاج إلى ضربة بعنوان (أغلق صنبور الهراء الآن!)»، قال

(فليش) متحفزًا.

أدرك (أمير) تسلل بعض القسوة إلى رده الأخير في غمرة انحيازه لمبدئه، فعاد يلتفت إلى الشاب، قائلًا بلهجة أقل تخاصمًا، أكثر ودًا:

ـ «وأنا رأيي أنك لم تكن لتوجَد هنا لولا قيامك بتضحية نبيلة ترفض الاعتراف بها لسبب ما في قلبك، ولهذا تحتد في التهجم على سمو معنى التضحية ذاته»

وسحب نفسًا عميقًا ثم طلب:

ـ «دعنا نستعرض قصتك إذا سمحت»

ـ «لا أسمح!»

انقض رد الشاب على الطلب يفترسه في مهده، فزفر (أمير) وقد تأخر في تجهيز رد على الرفض المتوقع. كان ذلك حين ربتت يد قوية على كتف الشاب، فالتفت الخصمان إليها ليجدا الأربعيني هادئ الملامح إياه، نظر إلى الشاب ببسمة صافية وقال:

ـ «لا بأس.. أنت تعلم أنك بحاجة لذلك»

جزَّ الشاب على أسنانه بعصبية، وتحرك كفاه نحو وجهه لكنه أرجعهما عنه كاتمًا انفعالاته أو محاولًا ذلك، فالتفت الأربعيني إلى (أمير) وأومأ بالإيجاب، ليبادله (أمير) الإيماء مترقبًا.

....

الفشل الأول

جلس كبير عائلة (أبو المكارم) ينظر شذرًا إلى ذلك الشاب الجالس أمامه ببرود مستفز، والذي تعمد حينها عدم مبادلته النظرات، استفزازًا لا تجنبًا.

لم يتمالك الشيخ نفسه، وهتف مندفعًا:

- «أهذا مقامنا عندكم يا عمايرة!؟ تجلبون شابًا من دور أحفادي ليقف أمامي ويحاجُني!؟ أول قصيدتكم كفر!»

تعمد الشاب تشييع ابتسامته المتسعة بأكبر قدر ممكن من الاستفزاز، كما تعمد التأخر في الرد، فقال أخيرًا:

- «فلتعتبر يا حاج (بكر) أن العمايرة لم يجدوا فيهم كبيرًا قادرًا على محاجتك، فصدّروا أحد شبابهم. فلا تعتبر الأمر قصدًا للتقليل من مكانتك -المحفوظة-؛ فالعمايرة لن يغامروا بما يرونه حقهم لأجل التقليل من مكانتك -المحفوظة- فقط.. وعمومًا هم قد جَنَوا على أنفسهم، فلا تضايق نفسك وانتهِ مني سريعًا».

تحمّل كبار العمايرة الإهانة الضمنية لثقتهم في المآل الأخير. كان الشاب يتحدث بهدوء مغلف باحترام ترى التهكم يتلوى داخله فلا تستطيع له إمساكًا. أجج هذا غضب العجوز، لكنه لم يملك، وسط نظرات رجال العائلتين والحضور الحياديين، إلا أن يعتلي صهوة منزلته، ويتنحنح مستعدًا لاستعراض وقائع الاختلاف بحنكة السنين.. لاحت منه نظرة سريعة إلى الشاب، فقابلته النظرة الثابتة والابتسامة المستفزة.. أطال التنحنح محاولًا الهرب منهما.. لا، هو لن يسمح لنفسه أن يقلق من طفل كهذا! شعوره بأنه يبدو أمام الجمع مرتبكًا يزيده ارتباكًا!

أخيرًا تمالك نفسه، وتسلح بالمكابرة، فقال:

- «حسنًا يا فتى.. لنستعرض أمام الرجال الوقائع كاملة»

واندفع يسرد عشرات الوقائع بدقة بالغة، مطعّمًا إياها بالوثائق والأسانيد،

كما استطاع بدهاء الهروب من نظرات الشاب الثاقبة عن طريق توزيع نظراته على الضيوف بدقة واهتمام.. استمر يسرد لأكثر من نصف ساعة دون أن يقاطعه أحد. ودّ لو كان هناك المزيد ليحكيه، لكن الوقائع انتهت أخيرًا، ولم يشأ إعادةً أو زيادة حتى يحافظ على قوة وثبات موقفه.

لدى انتهائه، قتل رجال (أبو المكارم) شواربهم في زهو؛ لقد قتل كبيرهم العمايرة قتلًا! كيف سيردون وعلى ماذا أم ماذا!؟

مرت دقيقة كاملة من الصمت، والعيون معلقة بالشاب، الذي ظل مكانه هادئًا صامتًا، حتى إذا هم الجميع بالكلام وجدوه قد نطق وقال:

ـ «حسنًا..»

واعتدل بحركة مدروسة، مسترسلًا بنفس الاحترام الكاذب:

ـ «لقد سرد الحاج (عارف أبو المكارم) جميع الوقائع من ناحيته، وسأرد على كل ما ذكر دون إنقاص.. لكني قد استمعت لمدة 37 دقيقة ولم أقاطع، وإني أرجو أن أعامل بالمثل؛ لأن هذا..»

وألقى نظرة سريعة جالت في عيون الحضور جميعًا، قبل أن يكمل بابتسامة ذات مغزى:

ـ «دوري!»

تقافزت الشماتة قفزًا في عيون العمايرة، وهم ينتزعون الحق انتزاعًا من بين فكوك عائلة (أبو المكارم) فكًّا فكًّا، بعد أن أجهز داهيتهم على الخصوم تمامًا في ساعة واحدة، ناجحًا في سحب الحكام جميعًا إلى صفه. فيما انسحب الخصوم يدارون أذيال الخيبة التي التصقت بهم كالعار. أغلقوا أبوابهم عليهم، ودفنوا مسامعهم تحت ألف وسادة؛ لئلا تدركها أصوات احتفالات

العمايرة، الذين حرصوا بدورهم على جعلها عالية كفاية لتفعل.

يقف مزهوًا كالطاووس في مركز الاحتفال الكبير بحديقة سراي العائلة، يتلقى الربتات والإشادات والمِنَح من كبار العائلة وصغارها، بينما تلتمع عيناه بلذة الانتصار الذي لم يألف غيره.

حانت منه نظرة إلى إحدى شرفات السراي، لتقطع حبال لذته النظرة إياها في عيني ابنة عمه الواقفة تتطلع إليه بثبات.

أشاح بوجهه زافرًا في ضيق، ثم تحرك منسلًا من الحفل إلى داخل السراي، ليصعد إلى السطح مباشرةً، حيث وجدها في انتظاره كالمرات السابقة.

ـ «لا أعرف لِمَ تستكثرين عليّ الانتصار يا (فرح)!»

حدجته بنظرة قوية أسرعت عيناه تحاولان الهرب منها، وهما اللتان اعتادتا العكس، فعاد يزفر في ضيق ويقول:

ـ «تكلمي يا (فرح).. ماذا هناك!؟؟»

ـ «هل أنت راض عما فعلته اليوم؟؟»

اندفع يجيب:

ـ «تمام الرضى! ماذا فعلت!؟ هل سلبت حقًا ليس لنا!؟»

لم تُزِح عينيها من عليه، وردت بعد لحظة صمت:

ـ «أنت تعرف أن الخطأ كان متبادلًا بين العائلتين، والحق رائح وغادٍ بينهما.. وما فعلته أنت...»

قاطعها: «وما فعلته أنا أنني أثبتُّ بالحجج والبراهين أن الحق معنا واستعدته لنا»

ـ «أنت استخدمتَ دهاءك ومهارتك لاقتناص الحق إلى صفنا فقط»

جزَّ على أسنانه وهتف:

- «إذًا أنتِ تلوميني لأني داهية وماهر!!»

ردت منفعلة:

- «لا! أنا أخشى عليك هذا الطريق!»

- «أي طريق!!؟»

- «طريق التعطش للانتصار.. أنت تدمن المبارزات الكلامية هادفًا للانتصار فيها جميعًا مهما كان الثمن!»

اخترقت سهام نظراتها مثاقيب نظراته، فالتفت هاربًا منها يهتف:

- «كان يجلس أمامي بدل الشارب مئة، يحمل الواحد منهم خبرات بعدد شعراته؛ لماذا لم يستطع أي منهم الرد عليّ وإفحامي!؟ ليس لمهاراتي وحدها بالتأكيد؛ بل لأن الحق مـ..»

قاطعته: «(سعد)!»

توقف، وانكتمت الكلمات في حلقه، فالتفت لها:

- «ماذا؟؟»

أطل القلق من عينيها متجسدًا في قطرات من دموع حبيسة، وقالت:

- «أنت تعرف جيدًا عما أتكلم.. أنا خائفة عليك يا (سعد).. خائفة عليك من نفسك.. أخشى أن تصل ليوم تجعل فيه الانتصار فوق كل حق»

مستنكرًا: «من قال لك هذا!؟»

مندفعة: «قلبي!»

ألجمه ردها لثوان طويلة، قبل أن يهرب ببصره من نظراتها ودموعها إلى السماء، ويقول:

- «هذا طموحي يا (فرح)؛ أن أستثمر موهبتي ومهاراتي لتحقيق النجاح

الذي أصبو إليه.. لا يمكنكِ أن تلوميني على طموحي.... أما بالنسبة للحق، فلا تقلقي.. أنا أستطيع دومًا الانتصار للحق مهما كان ضعيفًا»

ابتسمت بألم وتمتمت:

ـ «تمنيتُ لو سبق استدراكك استفتاحك»

عض على شفته ألمًا، وشعر بشعور مقيت من العجز عن الرد، فأمعنت هي النظر إليه، وقالت بإشفاق:

ـ «بعد أقل من سنة ستصير محاميًا معتمدًا يا (سعد).. اختيار جانب الحق ربما لن يعود خيارًا متاحًا دائمًا.. وأنا أخشى عليك من تعطشك للنجاح والانتصار بشكل مستميت.. لن تجد أحدًا غيري يهتم كفاية ليخبرك هذا الكلام»

ونكست رأسها دامعة، فالتفت هو لها مبهوتًا، وارتعشت أنامله تريد الانتفاض لمسح دموعها، غير أنه أخيرًا تنهد، وقال بهدوء بارد:

ـ «يبدو أنكِ لن تقتنعي مهما حاولتُ معك يا (فرح).. أنتِ من يجبرنا الآن على الانتظار الأليم حتى أثبت لكِ عمليًا»

وتحرك مغادرًا السطح بخطوات بطيئة صعبة، تاركًا إياها خلفه تموه ملامحها مع ابتعادها إلى مؤخرة الصورة. يجز على قلبه ألمًا، وقد قرر قرارًا نهائيًا.... لن يتمكن من النجاح أبدًا وهو عاجز أمام فتاة بعمره!

وكأنها قرأت أفكاره، راقبته يغادر السطح ببطء، باديًا كمن يغادر عالمها كله، وقد تحررت دموعها أخيرًا لتُغرق وجنتيها.... خوفًا عليه!

...

في قاعة الانتظار الخاصة، والتي ساهم في تطويرها وتفخيمها بنفسه، الملحقة بقاعة المحكمة، جلس على كرسيه الشخصي، وأشار للنادل إشارة خاصة لطلب مشروبه الخاص، فأسرع النادل النحيل يزين حركاته بالرقي والنظافة، وهو يشرع في إعداد المشروب، بينما تجاهل هو كل هذا، ووضع حقيبته على مفرش المنضدة النظيف أمامه، ليُخرج منها بعض الأوراق بحرص، ومن ثم يبدأ في مراجعتها باهتمام لا يخلو من الثقة.

على بعد ثلاثة أمتار، كان (بهاء)، الذي فقد آخر ملامح اسمه، يجلس على نار متقدة في انتظار ظهور أي مَعْرَف له ليبدأ معه وصلة النميمة التي لا يطيق لها كتمًا.

ولم يمر الكثير، حتى تناهت لمسامع (سعد) المتيقظة الوصلة المستطيلة المعتادة، عن المحامي صغير السن الداهية، الذي علا نجمه بسرعة، مدعومًا في بداية مشواره بأموال ونفوذ عائلته الكبيرة، واستطاع هو بدهائه الشيطاني (تُضحِكه الكلمة) وثقته البعيدة في نفسه أن يثبت قدميه في الوسط، ويرتقي سلم الشهرة بخطوات متسارعة نحو القمة.

«والتي أؤكد لك أنه سيبلغها خلال سنوات قليلة!». كانت هذه آخر كلمات (بهاء) المشبعة بالحقد الدفين، والذي زفره بغِلّ في سطح كوب الشاي يتظاهر بتبريده.

يبتسم (سعد) باستمتاع كأنه سمع ما يطربه. هو لا يخاف الحسد ولا يؤمن بأنه يصيب غير الجبناء؛ حتى أنه مستعد للالتفات لـ(بهاء) وإخباره بأنه أنهى مراجعة ملف قضية اليوم بتركيز شديد، دون أن تفلت منه كلمة واحدة من وصلة النميمة في نفس الوقت.. «هذا شيء آخر مناسب جدًا لتحقد عليه يا (بهاء).. لا داعي للشكر».. يفكر في الأمر ويضحك في سره ساخرًا.

لكنه فوجئ في اللحظة التالية بحقيبة نسائية راقية تجاور حقيبته على المنضدة الصغيرة! متى وُضِعت هنا!؟؟ ومن وضعـ..!!

كانت تلك الشابة الثلاثينية هادئة الملامح تجلس على الجانب المقابل من المنضدة تنظر في عينيه بثبات. لدى رؤيتها توقف عن محاولة التفسير؛ فلطالما كانت هي الناشز على كل نواميسه.

امتدت أصابعه بخفة تسحب سيجارة من علبته الفخمة، ليضعها في فمه ويستعد لإشعالها قائلًا:

ـ «مرحبًا (د. فرح).. Long time no see»

لم تستطع الابتسام ولو على سبيل المجاملة، وراقبته بصمت حتى أنهى إشعال سيجارته ونفث أول سحب دخانها، ثم قالت بهدوء:

ـ «مرحبًا (سعد).. نعم فعلًا؛ الاتفاق غير المعلن بيننا على تلافي اللقاء سهّل الأمر كثيرًا»

حاول التمعن في عينيها الكامنتين خلف النظارة الطبية الصغيرة؛ علّه يستشف منهما سبب هذه الزيارة المفاجئة، ومختبرًا في الوقت ذاته قدرة عينيه على مواجهة عينيها الثاقبتين بعد تلك السنوات.

ـ «دعك من لغة العيون يا (سعد)، ولنتحدث مباشرة.. أنا هنا في أمر عاجل»

قالتها بعملية أزعجته؛ هو يحب العملية لكنه لا يريدها هي أن تتحدث بها.. هذا تعدٍ على خصوصياته!

نفث المزيد من الدخان في محاولة للاستفزاز، وسألها:

ـ «خيرًا يا (فرح)؟»

وضعت كفها على ملف القضية على الطاولة بحركة أذهلته، وقالت:

ـ «هذا هو الأمر.. القضية التي ستترافع فيها بعد نصف ساعة»

سيطر على أعصابه سائلًا في برود:

ـ «ماذا عنها؟؟»

قالت بجدية لا تأبه لطريقة حديثه:

ـ «الأرض محل النزاع.. مقام عليها ملجأ للأيتام»

مواصلا البرود: «أعرف»

ـ «هذا الملجأ يأوي أكثر من 70 يتيمًا»

ينفث الدخان: «أعرف»

ـ «و...!؟»

تتبجح نظراته في عينيها أكثر:

ـ «و... أتعرفين أنتِ أن الأرض محل النزاع مستولى عليها بوضع اليد، وموكلي هو صاحب الحق فيها؟»

ـ «أعرف»

ـ «إذن ماذا!؟ هل نترك أموالًا مسروقة لأن السارق يصرفها في الخير!؟»

ـ «لم أقل هذا!»

يخترق حدود عينيها أكثر:

ـ «إذن ماذا تقولين؟؟»

تجهم وجهها في غضب واشمئزاز، بينما واصل هو اقتحامه المتبجح لعينيها، فأشاحت بوجهها عنه، ليبتسم هو في انتصار، ثم يتراجع في كرسيه قائلًا:

ـ «كل قضية أتولاها أدرسها بعناية شديدة جدًا قبل قبولها.. لا أسمح أبدًا بأي شائبة تعكر صفو طريقي في المحاماة، رغم قدرتي على الفوز بأي قضية في الواقع.. وقضية اليوم لا تشذ، كما لن تشذ أي قضية آتية عن قواعدي الأثيرة»

وأنهى:

ـ «أنا في صف الحق اليوم أيضًا يا (فرح).. آسف إن كنت قد خيّبت آمال 9 سنوات من انتظار الفرصة لك»

اتسعت عيناها صدمةً، والتفتت له بنظرة أفزعته، ثم ضربت على المنضدة بقوة هاتفة:

ـ «أوتحسب أنني جئت اليوم من أجل تفاهاتك هذه!!؟ أوتحسب أنني مازلتُ أهتم أصلًا!!؟ أو أنني أشحت بوجهي لأنك أفحمتني وحطمت آمالي بكلامك!!؟ أفِقْ من أوهامك المبتذلة! فأنا لم أشح بوجهي سوى اشمئزازًا مما انحدرتَ إليه من سواد وابتذال!»

كانت تتكلم بقوة وسيطرة لم يملك معهما أن يتراجع حتى، وضعت يدها في حقيبتها مكملة:

ـ «اسمع أيها المحامي الموقر الخالي من الشوائب.. أتعرف أنت سبب وضع اليد على الأرض؟؟ موكلك الفاضل كان السبب في تيتيم نصف أيتام الملجأ بالأساس، حتى أرض الملجأ حصل عليها بالغصب»

وقامت واقفة بحدة لا تخلو من الرقي مواصلة:

ـ «فوز موكلك بالقضية اليوم يعني تشريد الأيتام الـ70 غدًا، وليس هذا أسوأ ما سيحدث!»

وألقت في وجهه ملفًا صغيرًا مُنهية:

ـ «أضِف هذا إلى ملف قضيتك، أيها الدارس بعناية!»

وتحركت مغادرة المكان قبل أن يفيق من صدمته الأولى!

دقيقة كاملة مرت وهو على الصدمة، لم يوقظه إلا تصاعد منسوب الغضب داخله إلى حد التصفير. تلفّت حوله بعصبية، لتقابله نظرات (بهاء) التي

تلونت بتدرج بين الذهول والتشفي. لملم أوراقه في الحقيبة حانقًا، واستعد للخروج، حين استوقفته كلمات (بهاء) المتشفية:

ـ «انتظر يا أستاذ.. لقد نسيتَ الملف الذي ألقته لك الآنسة!»

فليحترق المبنى بالكامل لغضبته الآن!!

بأصابع مرتعشة يقلب الصفحة قبل الأخيرة في الملف ليقرأ آخر سطوره.

ينتهي ليترك الملف يسقط على السيراميك الأملس، ويضع كفيه على عينيه يفركهما وجبهته بقوة.

ـ «لماذا!؟ لماذا يا (فرح) كل مرة!!؟»

يضرب جدار الحمام بجانب قبضته لعله يفرغ فيه شحنات غضبه، لكنها تأبى مغادرته، لتبدأ أسنانه في التضاغط بعنف.

ماذا يفعل؟؟ هل يكمل الطريق كأن (فرح) لم تظهر ولم يقرأ حرفًا إضافيًا اليوم؟؟ هذا هو الصواب! في النهاية هو كان واثقًا من موقفه القانوني والحقوقي تمامًا قبل ظهور فرح. لكن.... ما أدراه أن (فرح) وحدها تملك هذه المستندات!؟ هي أستاذة جامعية وناشطة اجتماعية مرموقة، وبالتأكيد لها علاقاتها وصلاتها.. لن ينتهي الأمر على هذا!

هل.... لا!!!! اليوم جلسة نهائية للقضية.. تخليه عن الحكم لصالح موكله يعني الخسارة.. «لن أخسر قضية! لن يحدث!».

يحاول التأجيل؟؟ هو يستطيع أن يقنع القاضي بالتأكيد.. لكن على أي أساس؟؟ وبماذا سيبرر لموكله؟؟ وإن وجد المبرر -وهذا ليس صعبًا جدًا- فماذا بعد التأجيل؟؟

نعم يمكنه أن يرتدي عباءة النبلاء، ويغطي فشله بتزيين عباءته بأوسمة

البطولة ونياشين الشرف.. لكن كيف يأمن غضبة موكل لا يُستهان به وبنفوذه الذي يغطي نفوذ عائلته بأكلمها!؟؟

ماذا يفعل؟؟ «ماذا!!!!؟؟؟»

تصاعدت في تلك اللحظة نغمة هادئة من هاتفه المحمول، تعلن خمس دقائق باقية على بدء المحاكمة!

حين خرج من قاعة المحكمة، كان يدرك أنه انتهى تمامًا ربما.

ارتسمت ابتسامة ألم على شفتيه، تسخر من خلايا عقله التي انفجرت باحثة عن مبرر لما فعل.

وحينها رآها!

لم يتوقع أن يجدها تنتظره خارج قاعة المحكمة، واقفة في سكون، تبتسم ابتسامة كان قد نسيها، وتطل من عينيها المحمرتين فرحة خاصة.

تباطأت خطواته في طريقه تجاهها، فتحركت هي إليه، لينكس رأسه هاربًا من عينيها. أدركته فاتسعت ابتسامتها فخرًا وإشفاقًا، وقالت:

ـ «فعلتَ الصواب يا (سعد).. لا يضايقنك هذا أبدًا؛ كنتَ في صف الحق فعلًا، تمامًا كما أخبرتني باكرًا»

ـ «بالضبط» قالها بصوت خافت.

ـ «!!؟»

رفع إليها وجهًا جامد الملامح، وقال:

ـ «هذا ما فعلت.. نفَّذتُ ما أخبرتك به باكرًا... فلم أكن لأسمح لنفسي أن أخسر أمامك يا (فرح). ماذا حسبتِ غير ذلك!؟»

وتحرك متجاوزًا نظراتها، تاركًا إياها، مرة أخرى بعد تسع سنوات، تراقبه يغادر ببطء.

تابعوا على t.me/book100100

ساد صمت مهيب أجواء أرض التكريم. وابتسم (أمير) مستمتعًا بملمس الدموع على وجنتيه، ثم اقترب من (سعد) وربت على كتفه بدوره، لكن الأخير ظل منكس الرأس، فنزل (أمير) القرفصاء إليه، وقال داعمًا:

ـ «لو ما كانت تضحيتك نابعة من نبل حقيقي لما كنتُ هنا يا (سعد).. حريّ بك أن تفخر بما فعلت؛ فهذا ليس ضعفًا أبدًا بل هو القوة الحقيقية؛ وليس فشلًا إطلاقًا، بل هو أسمى نجاح»

لم يبدُ على (سعد) استعدادًا للمواساة أو شد الأزر، فنظر (أمير) إلى الأربعيني الواقف خلف (سعد) يطلب الدعم، كان ذلك حين صدرت غمغمة خافتة من خلفه:

ـ «لماذا كل قصص التضحية تنتهي دائمًا بنهايات حزينة؟!»

تعرّف (أمير) على صوت (أندي) الكسير، وأراد إسكان عصفورين في عش واحد، فقال بابتسامة واسعة:

ـ «وما أدراك يا (أندي)!؟ نحن دائمًا نرى القصص حتى توقُّف الراوي عن السرد.. ما أدرانا بما حدث بعدها!؟ نحن هنا رأينا (فرح) تراقب مغادرة (سعد) البطيئة ولم نر ما بعدها.. في رأيي هذه النهاية المفتوحة بالذات تسمح بأحداث أجمل بعدها.. أتعلمون؟ ربما سطر واحد بعدها يغير كل شيء»

ـ «مثل ماذا؟؟» سأل (فليش) باهتمام.

أجاب أمير مرتبًا كلماته: «مثل...»

وتحرك متجاوزًا نظراتها، تاركًا إياها، مرة أخرى بعد تسع سنوات، تراقبه يغادر ببطء.

ومن جديد تحررت دموعها، لكن هذه المرة مع ابتسامة أمل.

ـ «امممممم» حك (فليش) رأسه مفكرًا.

أسرع (أمير) يقول: «هذا ارتجال سريع فقط.. فكروا في الفكرة فقط.. سطر واحد إضافي يغير الكثير»

وعاد ينخفض إلى (سعد) مستطردًا:

ـ «فكر فيما يمكن أن يحدث بعدها يا (سعد).. هذه ليست النهاية أبدًا.. عبقري مثلك لا تكون نهايته بنفس البساطة»

رفع (سعد) وجهه أخيرًا، لتظهر دموع متجمدة في عينيه، وبملامح حديثة يحدق في وجه (أمير) مفكرًا في كلماته، ليشتعل الأخير حماسًا، وتتهافت الكلمات على ذهنه، فيسرع بالقول:

ـ «لعله من حظنا أن النهاية مفتوحة ها هنا.. أيضًا نحن لم نعرف فعلًا ما حدث داخل قاعة المحكمة.. كل هذا له سبب بالتأكيد.. لعله مقدر لك أن تكتب التالي بنفسك.. لعل قصتك هي بداية رواية عظيمة تكمل أنت بنفسك باقي أحداثها»

وغمز له بطريقة مرحة، فاهتزت شفتا (سعد) عن جنين ابتسامة، لتنتعش روح (أمير) ظفرًا، كان ذلك حين اقترب منه (فليش) وهمس:

ـ «أنا أريد أن أعرف ما حدث في قاعة المحكمة»

اعتدل (أمير) قائلًا بجذل: «ربما نعرفه في وقت لاحق»

ـ «لكني لا أستطيع كبح فضولي!»

ـ «ولا أنا.. لكن هذا...» يلكزه برفقه بقوة ضاغطًا على حروفه: «ليس وقته

يا (فليش)!»

يتأوه (فليش) بخفوت، ثم يتنحنح فيقول:

ـ «حسنًا.. وتعلمون؟ مفارقة طريفة أن يكون ما يُنهضك من فشلك الأول هو.... فشل آخر! فقد استطاع (أمير) لتوه أن يُفجم (سعـ..»

ركله (أمير) بشكل كارتوني مطيحًا به بعيدًا، وقال بسرعة يخاطب (سعد):

«سننتظر تكملة روايتك بفارغ الصبر يا (سعد)، فلا تتأخر علينا»

واندفع يكمل قبل أي مقاطعة:

ـ «وتذكر دائمًا.. التضحية فعلٌ لا يُخجل منه.. بل يستحق أن نقف فوق أعلى جبل ونصرخ بفخر واعتزاز أننا قد ارتكبناه»

ضحك الأربعيني بمرح، وقال:

ـ «على مهلك أيها الأمير! لا يجب أن نهرب من الخجل من التضحية إلى الرياء بها»

ـ «(الرياء)!؟» كررها (أمير) في ضيق، ثم قال:

ـ «ليس هذا ما قصدته يا سيدي! أنا.....»

وتلعثم في ضيق، فضحك الأربعيني من جديد، وقال:

ـ «أنا أمزح معك فقط.. لكن انتقِ كلماتك بدقة في المرات المقبلة»

(أمير) بعناد: «التصريح لا يكون رياءً دائمًا! في الواقع رهاب الوقوع في الرياء كثيرًا ما يدفعنا لانتقاص حقوقنا الشخصية حتى لنكره أنفسنا!»

الأربعيني: «لا أختلف معك.. لكن ألا ترى أن أسمى التضحيات هي ما لا تُعرف أبدًا؟»

يلتفت (أمير) لـ(أندي) المتكوم داخل شجرته بانكسار، ويجب بخفوت:

ـ «أسماها وأكثرها بؤسًا!»

الأربعيني يكمل: «أنت تحدثتَ من قبل عن (الخير المطلق) ومدى تقبله.. ماذا يمكن أن يكون أكثر خيرًا ومثالية من تضحية لا يعلمها أحد!؟»

وربت على كتف (سعد) مكملًا:

ـ «هذه هي التضحية التي لا يُنتظر من ورائها أي مصلحة دنيوية فعلًا»

ـ «اسمح لي أن أختلف مع تعميمك يا سيدي»

التفت الجميع إلى شعاع الضوء الذي سطع إلى جانبهم في تلك اللحظة، فتجسد في هيئة محارب أشقر بطول ثلاثة أمتار يُذكِّر الرائي بمحاربي الأوليمب في الأساطير الإغريقية، يرتدي درعًا فضيًا كاملًا ينعكس عليه ضوء الشمس فيتألق بلمعان يخطف الأبصار.

اشرأب (أمير) برأسه ليدرك أبعاد ضيفه بالكامل، قبل أن يضحك بارتباك قائلًا:

ـ «آسف يا سيدي.. لم أتوقع ضيوفًا بحجمك»

ضحك المحارب ضحكة طويلة، ثم ابتسم ملتفتًا إلى الأربعيني وقال:

ـ «حسنًا.. المعذرة.. أنا (نور)»

ومد يده الكبيرة يصافح الأربعيني بود، فمد الثاني يده إليه ضاحكًا، وقال:

ـ «(ويليام)»

تم السلام بشكل ما، ومع استئناس ناظريه للضوء تبين لـ(أمير) في تلك اللحظة أن المحارب الكبير أمهق لا أشقر، في العقد الرابع من عمره أو ما يوازيه غالبًا. سأل (ويليام) صديقه الضخم الجديد قائلًا: «وأي تعميم تقصد وتختلف معه يا (نور)؟؟»

جلس (نور) أرضًا مُتربِّعًا ليصبح في مستواهم، ثم قال بابتسامة أبوية رغم

أنه لا يبدو أكبر أطراف النقاش:

ـ «في أحيان أكثر مما نعتقد، يكون واجبنا -وأقول (واجبنا) وليس أقل من ذلك- أن نقوم بفعل التضحية على الملأ، ولا نخفيها أبدًا»

كرر (ويليام) برزانة:

ـ «(في أحيان أكثر مما نعتقد)؟؟»

ـ «نعم يا (ويليام).. ما الهدف الأساسي من التضحية النبيلة؟؟ تقديم المساعدة والدعم للغير أو دفع الضرر عنهم، صح؟»

أومؤوا مؤممين على كلامه، فأكمل:

ـ «والتضحية هي الوسيلة الأنبل لمساعدة الغير.. لكن ماذا بعد؟؟ مساعدة أو دفع ضرر تم بتضحية ما وانتهى الأمر! لماذا نقف عند هذا الحد!!؟»

(أمير) يحاول تكوين فكرة:

ـ «هلا وضّحت أكثر؟؟»

مد (نور) وجهه إلى الأمام قائلًا بلهجة خاصة:

ـ «الإلهام! القدوة! نشر الإيجابية! كيف سيُكتب لفعل فائق النبل والسمو مثل التضحية البقاءُ ونحن نخفيه عن الأعين باستمرار خشية الوقوع في الرياء!؟»

ابتسم (ويليام) وقد اكتمل فهمه لمقصد (نور)، وقال:

ـ «لكن.. أنا لم أعمم، وأنت أيضًا لا يمكنك التعميم يا (نور).. الملابسات تختلف من حالة لأخرى»

أشار له (نور) وقال:

ـ «بالتأكيد.. لكن لنفكر في الأمر بمنظور أشمل. جيل بعد جيل تُفتقد القدوة أكثر فأكثر.. النفوس في انحدار، والأخلاق إلى زوال، وأفعال نبيلة مثل

تابعوا على t.me/book100100

التضحية مهددة بالانقراض.. هذا يجعلنا بحاجة أكبر إلى تحقيق القدوة»

ـ «وكيف نتجنب الوقوع في الرياء إذن؟؟». كان هذا (سعد) الذي وقف عاقدًا ذراعيه وحاجبيه.

هتف (أمير): «مرحى! المحاور الاستثنائي عاد إلى الحلبة!»

تبادل الجميع الضحك بدرجاته، وأجاب (نور):

ـ «النية يا (سعد). وإخلاص النية بدون ثقة عظيمة في النفس هو ما ينحدر بنا إلى رهاب الرياء كما أسماه (أمير)، ويمنعنا من تحقيق القدوة لغيرنا.. رهاب الرياء آفة أخطر على المجتمعات من الرياء. ثق في نفسك وفي إخلاص نيتك، ثم انطلق، ولتُردِّد الآفاق أصداء محاسنك!»

لم يملك أحدهم إلا أن ينبهر بكلماته، خصوصًا مع صوته القوي المؤثر، وكأنه مدرَّب على اختراق الصدور إلى القلوب ومنها إلى كل أرجاء الجسد.

قال (أمير) بانبهار:

ـ «أتعلم يا (نور) ماذا أفعل عندما أشعر بأن رهاب الرياء يثنيني عن عمل الخير؟؟ أقول لنفسي (سأعمل الخير وأنال الذنب راضيًا.. ارتحتِ!؟)»

قهقه (نور) بصوت عال، وقال:

ـ «طريقة رائعة.. وهناك وسائل أخرى تساعد على ذلك.. مثل الخبيئة، و.... لكن هذا ليس موضوعنا على أي حال»

تبادل (ويليام) و(سعد) نظرة ذات مغزى، وقال الأخير:

ـ «إذن، وحسب نظريتك، فأنت لا تمانع في استعراض قصة تشريفك لنا هنا»

بابتسامة واسعة: «لا أبدًا.. بل على الرحب»

....

نور و ظلام

كان (سراج) أحد العائدين من خط المواجهة. دخل مسرعًا إلى ساحة القيادة، حيث وجد الرفاق متحلّقين حول نقطة وهمية، يتدارسون الوضع كالمعتاد.

لاحت منه نظرة إلى القائد (نور) بجسده العظيم، يجلس في الحلقة تبدو آثار الإرهاق عليه كالمعتاد، وكالمعتاد أيضًا يجاهد أكثر لإخفائها.

بعد تحية صامتة اتخذ (سراج) لنفسه مكانًا في الحلقة، وبدأ يلملم أطراف النقاش الدائر.

كان (صبح) يقول: «.... لذا لابد من التوصل لإجراء جديد.. أعلم أننا قلنا هذا عشرات المرات.. لكني.... فقط لا أعرف.... لا يمكن فقط أن يستمر الوضع هكذا إلى الأبد!»

وأطرق في ألم، ليسود الصمت للحظات.

بدا لـ(سراج) أن قد فاته الكثير، لكنه لم يواجه صعوبة في تخمينه، إيماءة (نور) له أكدت تخميناته.. نفس الكلام يقال للمرة المئة؛ فمن له الطاقة بحرب سرمدية!؟

لاحظ الجميع الأسى الواضح على وجه (نور)، وهو مَنْ ألفوه الأكثر إشراقًا وحماسًا، فاندفعت (سناء) تقول:

ـ «والله ما سئمنا القتال يا (نور).. ولكننا نخشى عدم الجدوى فيما نفعل. سنوات وعقود مرت ونحن على نفس الحال.. تتسلح بالنور في قلوبنا أكثر، فنحافظ على أنفسنا منهم أكثر، ونمحو منهم أكثر وأكثر.. لكنهم يتكاثرون كالوباء!! حتى أننا مضطرون للبقاء على خط القتال معهم طوال الزمن للحد من تكاثرهم قدر الإمكان!»

«لابد من طريقة للقضاء عليهم جميعًا مرة واحدة!»، أردف (صبح) بكبت.

ابتسم (نور) لحماسهم، ثم التفت لـ(سراج) يسأله:

ـ «كيف حال خط المواجهة؟؟ هل أُنتزع منا أحد اليوم؟؟»

هز (سراج) رأسه نفيًا، وقال:

ـ «الحمد لله حتى الآن لا.. نحقق نصرًا كبيرًا ككل يوم»

اتسعت ابتسامة (نور) فجأة، وهتف:

ـ «عظيم!»

وقام واقفًا بسرعة، ليشعروا بحجمه وقوته، ثم قال بصوت قوي:

ـ «اسمعوا.. النصر الأهم لنا داخل الظروف الحالية هو أن نمنع بيادق الظلام من انتزاع جنودنا إلى ظلامهم.. أن تنحدر معدلات الانتزاع حتى تبلغ الصفر.. حينها يتحقق نصرٌ عظيم، وحينها فقط سنتمكن من القضاء عليهم نهائيًا؛ لذا أنا لا أذهب لخط المواجهة إلا عندما يجتاحه (ظلام) فقط، وأهتم بالتنوير هنا أكثر؛ لنتأكد من أن كل جندي منا مشبع بالنور حتى لا يجد الظلام لداخله مسلكًا.. هنا! هنا نصنع النصر الحقيقي.. والذي نحتاجه الآن هو الإيمان بذلك!»

وهتف بصوت جهوري فجأة: «من يؤمن بذلك معي؟؟»

اندفعت ألسنتهم تهتف خلفه مؤيدة، قبل حتى أن تستجمع عقولهم أبعاد كل ما قال! لم يفهم أحدهم أبدًا سر قوة كلماته ومدى تأثيرها فيهم الذي بلغ الأفق فتخطاه، رغم ذلك لم يشعر أي منهم للحظة بالسطوة أو السيطرة، بل شعروا في كل لحظة بالأبوة والقيادة والاحتواء والدعم.

❀❀❀

غادر الجميع إلى تنوير أو قتال أو راحة، وبقي (سراج) وحده. تحرك ببطء

نحو (نور) وقال:

ـ «هل كنتَ تتصنع الأسى!؟؟»

ابتسم (نور) ابتسامة لم يستطع منعها من التحول لضحكة، فقال (سراج) بسرعة:

ـ «إنك كنتَ تتصنع ذلك! كنتَ تتصنع ذلك لشحنهم سلبيًا تمهيدًا لضربة النور الساطع في النهاية!!»

ضحك (نور) أكثر، وقال:

ـ «نعم هذا صحيح.. والآن أنت مطالب بالتستر عليّ هههههه»

ضرب (سراج) جبهته بيده ضاحكًا:

ـ «وأنا نفسي سقطتُ فيها!! حسنًا يا (نور) حسنًا.. لكن، هل كنت تتصنع الإجهاد أيضًا؟؟»

بغموض: «ربما»

ـ «أو أنكَ مجهدٌ فعلًا من التنوير المتواصل بدون راحة تقريبًا»

بذات الغموض: «ربما»

عقد (سراج) ذراعيه وقال مازحًا:

ـ «كيف يكون قائد النور بهذا المكر!!؟»

ابتسم (نور) وقال بتمكن:

ـ «الله يمكر.. المكر ليس صفة سلبية دائمًا»

(سراج) مستسلمًا: «حسنًا حسنًا.. لِمَ أجادلك أصلًا!؟»

ثم كست الجدية وجهه وقال:

ـ «لكن.. هل لديك أية أفكار مبدئية عن كيفية هزيمتهم نهائيًا؟؟»

ابتسم (نور) مجيبًا:

ـ «لدي عدة أفكار مازلتُ أعمل على دراستها حاليًا»

بظفر: «كما توقعت! إذن لماذا لا تشاركنا إياها؟!»

ربت على كتفه بقوة رفيقة وأجاب:

ـ «في الوقت المناسب سأشارككم ما يرتقي منها إلى مستوى المناقشة مع مستشاريّ الأكفاء»

ـ «والآن ها أنت تزين عباراتك بالألفاظ المنمقة!»

دفعه (نور) برفق قائلًا:

ـ «هذا كثير من الفهم لألاعيبي يا (سراج).. والآن اخرج اخرج.. أحتاج إلى الاختلاء بنفسي والراحة قليلًا؛ فأنا (مجهد ربما) كما تعلم»

خرج (سراج) ضاحكًا، بينما حث (نور) خطاه نحو صومعته الصغيرة، فدخلها وأغلقها على نفسه.

وما إن فعل، حتى تهاوى مستندًا بظهره على الحائط، فانساب عليه يجلس أرضًا لاهثًا في إنهاك وانفعال.

غير أنه استكثر الراحة على ذهنه، فانطلق طالبًا في أرجائه يستعرض كل ما قيل وعُرِض ونوقش اليوم وقبل اليوم.

يفكر في اليوم الذي يَثْبُت فيه معدل الانتزاع على الصفر.. جنوده يترقبون هذا اليوم بقدر ما يخشون ألا يأتي.. أما فهو، فيخشى أن يأتي بقدر ما يترقبه!

يخشى أن يأتي ولم يجد الطريقة لدحر الظلام نهائيًا بعد.

هذا ما خشيه أسلافه من القادة، واليوم ينتقل إليه وقد كاد يدرك ما لم يدركوه.

لا يجب أن يوفي رجاله بعزمهم فيتأخر هو عنهم أو يُظهِر لهم عجزًا!

لا يجب لهذا أن يحدث.

لذا يجب أن يجد الحل النهائي قبل أن يأتي ذلك اليوم!

يجب!

...

اندفع أحد بيادق الظلام إلى عرين زعيمه صارخًا:

«سيدي ومالكي (ظلام).. (نور) قد ظهر على خط المواجهة ويفتك بأعدادنا بجشع!!»

انتفض (ظلام) من فوق عرشه صارخًا:

«ماذا!!!؟»

وتحرك كالطوفان نحو الحدث، مفكرًا:

«الساطع اللعين لم يبادر بالهجوم قبلًا!! ماذا حدث!!!؟»

وبلغ خط المواجهة في ثوان، فرأى بيادقه يطاح بهم ذات اليمين وذات الشمال فيتلاشون من فورهم. كان (نور) يتقدم جنوده بشجاعة وحماس، انتقلا بالعدوى إلى الجنود الذين اندفعوا من خلفه كتوابع الزلزال، يحصدون بيادق الظلام حصدًا!

ثوان قصيرة من الذهول والصدمة، بعدها كان يلاحم (نور) بعنف وكراهية لامحدودين، فيتلقى الثاني هجمته بابتسامة واثقة وجسد صلب.

ـ «ما بالك اليوم تبادر بالهجوم أيها الفاخر اللامع!!؟»

(بابتسامة ظافرة): «اليوم صفر يا (ظلام)!»

يتراجع متأهبًا لإعادة الهجوم: «اليوم صفر!!؟»

(بثقة أسطورية): «نعم، اليوم نعلن رسميًا حصانتنا التامة ضدكم»

توقف (ظلام) في منتصف الهجوم، وتطلع إليه في ذهول، ثم فجر الغضب من داخله على شكل ضحكة مجلجلة مدوية، وصرخ بجنون:

ـ «أوتحسب أنك بهذا حققت نصرًا عظيمًا!!؟ هذه نقطة صغيرة لصالحك فقط.. وأنا لست بحاجة إلى من ننتزعهم منكم؛ فلدي بيادق مصوغون بالكامل مني ومن ظلامي الخالص، وتكاثرنا الرهيب نستطيع تطويره إلى تكاثر مهول.. انظرررر!!!»

وصرخ وارتج وماج، ثم تفجرت منه آلافٌ من بيادق الظلام فجأة!

ضحك بشدة، وعاد يصرخ:

ـ «ما رأيك الآن؟؟ هل تريد المزييييد؟؟»

وعاد يموج فتتفجر منه الآلاف والآلاف من بيادق الظلام، الذين انطلقوا يتكاثرون على جنود النور، فبادلوهم ذلك استمرارًا في تبديدهم بلا تراجع.

صرخ (ظلام) وقد تملكه الجنون:

ـ «أتحسب أنك قادر على إنهاء معركة كُتِب لها الخلود إلى نهاية الزمان!!؟ ما كنت لتـــ...»

تعثرت حروفه لدى صدمته بابتسامة (نور) التي ازدادت اتساعًا، والأخير يعاجله قائلًا بصوت جهوري كان كافيًا وحده لتبديد العشرات من الأطياف السوداء:

ـ «جنودي صاروا مؤهلين لتبديد أي عدد من بيادقك الظلامية.. ولم يبق سوى قطع رأس الأفعى!»

ـ «قطع رأس الأفعى!؟؟»

وانفجر يضحك من سواد قلبه، وصرخ بكبرياء:

ـ «أتحسب أنه مهما زاد سطوع نورك الغبي فقد يقدر على تبديد ظلامي!!؟ لا أيها الساطع الغبي! أنا الظلام الصافي.. أنا قلب الظلام الذي لا يبدده أي نور.. أنا أساويك وأزيد.. ولكي أتبدد أنا يجب أن تتلاشى أنت!»

ـ «بالضبط!»

قالها (نور) بلهجة خاصة.

اتسعت عينا (ظلام) المرعبتان، وقال:

ـ «أنت لا تعني...!!»

بقوة: «أنت قلتها يا غريمي المظلم.. لكي أبددك يجب أن أتلاشى أنا.. وأنا مستعد للتضحية»

وأكمل هاتفًا بصوت رج الأرجاء:

«لأن هذا هو وقتها!»

تراجع (ظلام) للخلف مرعوبًا، بينما ألجمت الصدمة جنود الخير، وارتجفت قلوبهم لما سمعوا، وحينها أردف (نور) بقوة:

ـ «كل قادة النور السابقين حرصوا على البقاء أحياء حتى النهاية؛ حتى يبقوا دعمًا لجنودهم، وحتى يجدون خليفة لهم.. أما أنا فلا أخشى على جنودي بعد اليوم؛ لأن كل واحد منهم هو خليفةٌ لي من الآن»

تابعوا على t.me/book100100

ونظر لجنوده هاتفًا:

«أليس كذلك يا جنود النور؟؟»

ومرة أخرى أخيرة، اندفعت ألسنتهم تهتف مؤيدة ومؤكدة، فانطلقت أصداء صرخاتهم تبدد مئات ومئات.

ارتعد (ظلام) متراجعًا إلى أي مكان، و(نور) يحاصره بجسده، وبنوره، وبهتافه:

ـ «تخيل ما تؤول إليه بيادقك الجبانة وآخر ما رأتك عليه قبل تبددك رعبك ومحاولاتك الجبانة العبثية للهرب! في مقابل ما يؤول إليه جنودي الشجعان وآخر ما رأوني عليه قبل تضحيتي شجاعتي وإيماني بهم!»

مدركًا تمامًا فشل أي محاولة للمفاوضات، واصل (ظلام) محاولاته العبثية للهرب، بينما انتظر (نور) اللحظة المناسبة، وسطع سطوعه الأخير!

قد راقب الجميع اللحظة الأسطورية! لحظة تصادم المادة بالمادة المضادة، فتلاشيهما بانفجار عظيم!

انفجار حمل آخر صرخات (ظلام) المرتاعة، وآخر هتافات (نور) الحماسية.

تفجرت الدموع من عيون جنود النور، كما تفجرت هجماتهم في جحافل بيادق الظلام، الذين لم يحتاجوا الكثير ليتبددوا بتسارع خرافي، حتى لم يمر بسير وقت إلا وقد ساد الأرض الهدوء..

والنور!

للمرة الثانية يسود الصمت بعد انتهاء القصة، حتى لم يقطع الصوت سوى (نور) نفسه الذي هتف بحماس فجأة حتى كاد يفزعهم:

ـ «أرأيتم؟ هذا ما أعنيه!»

ضحكوا جميعًا من الموقف، وقال (ويليام) هازًّا كتفيه:

ـ «عليّ الاعتراف أنك شخصية فريدة للغاية يا (نور)»

أشار له (نور) وقال بفرح واثق:

ـ «أرأيت؟ أرأيت؟ هذا ما عنيتُه بالضبط.. لقد استطعتُ التأثير فيك، وهذا هو المقصود»

ابتسم (ويليام) وقال:

ـ «شخصيتك تستحق الدراسة أيها الساطع العظيم»

ربت (نور) بيده على ظهر (أمير) وقال لهما تباعًا:

ـ «أظن أنه لدينا وقتًا مفتوحًا هنا لتدرسني يا (ويليام).. أليس هذا صحيحًا يا (أمير)؟؟»

فزع (أمير) للحظة من اليد العملاقة المتجهة نحوه، ثم ضحك مع الربتة الرفيقة وقال:

ـ «صحيح الصحيح يا (نور)»

ثم تذكر شيئًا فهتف:

ـ «لكن لحظـــة! طالما أن هذا فكرك، فلماذا لم تتكلم حين عرضتُ على

الجميع حكي قصصهم!!؟»

جاء الرد من (سعد) بابتسامة خاصة:

ـ «تمهيدًا لضربة النور الساطع في النهاية!»

غمز له (نور) قائلًا:

ـ «تعلّمها من المحنّك يا (أمير)»

ضحك (أمير) قائلًا:

ـ «حسنًا حسنًا، تغالبوا عليّ لأنني الأصغر هنا.. لعلمكم أنا دماغي تزن من الأكوان ألفًا.. لكن قصصكم الرائعة تشلني كثيرًا عن التفكير في الحقيقة»

(سعد) بلؤم: «والآن ها أنت تزيّن عباراتك بالألفاظ المنمقة!»

احمرّ وجه (أمير) في حرج مرح، واستعد لهجمة مرتدة، حين قاطعته اليد التي ربتت على كتفه من الخلف.. التفت ليجده (أندي) بوجهه المزين بالنمش. كاد (أمير) يبتسم مُرحّبًا لولا تلك النظرة في عيني الآخر. دون كلمة أشار (أندي) إلى نقطة ما خلف (ويليام)، فالتفتوا إليها جميعًا، ليلمحوا ظلًا خلف إحدى الشجرات، تبين لهم بعد لحظات أنها فتاة تدفن وجهها بين كفيها مستندةً بظهريهما على الشجرة بانهيار.

قال (أندي) بخفوت قلق:

ـ «لقد كانت تستمع إلى القصص باهتمام.. بدأت بالبكاء في منتصف قصة (نور)، ثم انهارت أرضًا مع نهاية القصة»

ارتفع حاجبا (أمير) بقلق واهتمام، ثم تحرك ناحيتها بخطوات سريعة، لم تكن أسرع من (نور) الذي صار بجانبها في لحظة يسألها:

ـ «ماذا هناك يا بطلة؟؟ لماذا تبكين؟؟»

التفتت له بوجه مراهق محترق بالدموع، وعينين يملؤهما القهر، ثم قالت:

ـ «أبكي بسببك!!»

صدم ردها (نور) نفسه، وحينها كان (أمير) و(ويليام) و(فليش) قد وصلوا إليها، وقال (نور):

ـ «لا أفهم! كيف أبكيتكِ؟؟»

بدا أنها ستهم بالرد، لكنها عادت تنكس رأسها أرضًا وتبكي بقهر شديد.

ارتجف (أمير) من الموقف، وقال (فليش) بصوت حاول جعله جادًا:

ـ «فقط أخبرينا بما يبكيكِ»

لكن تجلى للجميع فقدانها القدرة على الاستجابة للأسئلة. وتكفلت الدماء الداكنة المُغرقة ثيابها بإفقادهم القدرة على مزيد من الأسئلة.

بعد لحظات من السكوت، بادر (ويليام) بالقول:

ـ «ليس عليكِ أن تجيبي يا صغيرتي.. اهدئي فقط. هل تسمحين لنا باستعراض قصتك؟؟»

لم تجب أيضًا، لكن صوت نشيجها قد خفت قليلًا، وهدأ ارتعاش جسدها إلى حد الخفة.

التفت (ويليام) إلى (أمير)، وأومأ له إيذانًا، فأفاق الأخير من ارتباكه وبادله الإيماء مترقبًا.

....

• نضال •

في ركن غرفتها تجلس..

جسد ساكن كقلب المحيط، وذهن يصارع ألف مد وجزر.

بزي الحرب تقتحم ابنة خالها الغرفة فجأة باحثةً بعينيها في أرجائها.

تكاد تعود فتخرج، لولا تلمحها!

يغلي دماغها وتندفع نحوها كالثور الهائج.

«أيتها المأفونـــــة!!»

تمسك بتلابيبها وتحاول جذبها للقيام:

ـ «تختبئين اليوم أيضًا!!»

تجيب بخفوت:

ـ «لا أختبئ، وتعرفين هذا.. لذا لا داعي لاستفزاز في غير محله»

تشتعل الأخرى غضبًا، فتدفعها ليرتطم جسدها الصغير بالحائط بعنف، وتصرخ فيها هي:

ـ «متى ستكبرين أنتِ!!؟»

تجيب بالسكون.

ـ «إلى متى ستتبعين خزعبلاتك المأفونة هذه!!؟ عمرك ستة عشر عامًا!! قُتِل أبوكِ وأخوكِ وخالك، وأنتِ مازلتِ على ضعف عقلك وأفكارك الطفولية المأفونة!!؟ ألا تشعرين!!؟»

وصلة السكون تستمر.

ـ «(نضاااااال)! أنا أتحدث إليـــكِ!!»

ـ «حديثي لن يعجبك» ترد بخفوت.

تكتم ثورة في داخلها: «لا.. تحدثي!»

ـ «لن أشارك في حرب ليس فيها حق وباطل»

تنفجر: «أقول أبوكِ وأخوكِ وخـ...

تعتدل واقفةً فجأة مُقاطِعة:

ـ «أبي وأخي وخالي كانوا على خطأ.. أدعو لهم بالمغفرة ولا أسير على خطاهم الخاطئة»

تلطمها بعنف فجأة: «حمقاااء!!»

تطوح فترتطم بالحائط، وتسكن عليه.

يرق قلب ابنة الخال قليلًا، لكنها لا تستطيع التقبل. تقبض على كتفيها بأدنى ما استطاعت من غلظة، وتهتف:

ـ «وهل تظنين أننا إن تركنا القتال فسيرحمنا الصُفْر!؟ سيأتون لذبحنا هنا في بيوتنا.. ألا تدركين هذا!!؟»

ـ «أدركه»

ـ «إذن ماذ...

تقاطعها بقوة: «لكني أدرك أيضًا أنه على الطرف الآخر من الوادي يوجد بيت كبيتنا، به مراهقة كإياي، ترفض تلويث يديها بالدماء، ولديها أقرباء يحاولون إجبارها على القتال.. أدرك أنني إن ذهبت للقتال فستضطر إحدانا إلى قتل الأخرى.... أنا لا أريد ليدي أن تتلوث بدماء بريئة يا (فداء)!»

تجبر كلماتها المشحونة بالقوة (فداء) على الصمت، للحظات فقط ثم تعود للهجوم:

ـ «كل شخص مسؤول عن قراراته يا (نضال)»

ـ «بالضبط.. وقراري هو عدم المشاركة»

البركان يعود لينشط: «وهل تظنين أن مثيلتك الصفراء ستتخذ نفس القرار!؟ الأغلب أنها ستقتلني في المعركة، ثم تجدينها هنا آتية لذبحك»

ـ «هذا شأنها»

أول قذفة حمم: «طالما اتخذتْ قرارها بالمشاركة فهي لم تعد بريئة!»

ـ «الأحصنة بريئة»

لحظة من الذهول: «ماذا!!!؟»

ـ «الأحصنة.. الأحصنة التي تركبها ويركبونها في الحرب، فتموت وتصاب وتُدهس أثناءها.. هل اختارت هي أيضًا القتال!؟ هل تـ..»

تنالها اللطمة الثانية أقوى وأشد، و(فداء) تصرخ وقد انفجر بركانها:

ـ «أي مثالية عمياء تعيشينها!!! ونحن نُقتَل واحدًا تلو الآخر!!؟ نصف رجال المدينة قد ماتوا وخرجت النساء للقتال من أجل البقاء.. وأنتِ تفكرين في مصير الأحصنة!!؟»

الدم ينساب إلى فمها ببطء، وعيناها المختفيتان خلف خصلات شعرها المتناثرة على وجهها تُغرِق وجنتيها بدموع صامتة.

(فداء) تتشنج ألمًا، وتجز على أسنانها قائلة من بينها بغضب:

ـ «حسنًا! افعلي ما ترينه أيتها المأفونة! أيـ.. أيـ...»

وتقبض على كلماتها بألم، ثم تندفع تغادر الغرفة ترج خطواتها الأرضية الخشبية رجًا.

تظل (نضال) مرتكنة بخدها على الحائط، تنساب عليه حتى تتساقط أرضًا تبكي وتدمي في صمت.

هي مقتنعة تمامًا بكل حرف ذكرته..

لكن هذا لا يعني أنها لا تتألم لكل حرف ذكرته (فداء)!

الحرب!

الحرب هي السبب في موت كل الأعزاء.. لا، بل الحرب هي قاتلة كل الأعزاء!

قاتلة الأحلام، والوئام، والحب، والبراءة، وكل شيء!

لا يمكن أن تستقيم الأمور إلا بانتهاء الحرب.. وإلى الأبد!

لكن كيف؟؟ «كيف؟؟ كيف؟؟ كيف؟؟»

تكررها بصوت هامس أقرب إلى الدندنة، وعيناها تحدقان بأرضية الغرفة، الغائمة بظلال خصلات الشعر أمام عينيها، فتبدو الصورة كما لو كانت من خلف قضبان قفص.

نعم، هذا هو قفصها وسجنها.. (العجز)! العجز عن إنهاء الحرب أو حتى إثناء الناس عنها.

تكاد تقسم أن لا أحد يذكر الآن لماذا بدأت الحرب أو كيف.

خلافات بين سياسات الزعماء والقادة، تُدّق لها طبول الحرب وتُنفخ لها أبواقها.. رايات زرقاء ترتفع هنا، ورايات صفراء هناك.. يصطف المدنيون خلف العسكريين كلٌّ جند للمدينة، وأمام الجميع أوامر القادة توجههم.

مع أول دم يراق يتحول الأمر من اتّباع إلى اقتناع وواجب وثأر لابد وأن يوفَّى. تتوالى إراقة الدماء ويستفحل الأمر إلى صراع لا نهاية له إلا البَيَاد أو الإبادة!

لذلك هي لا تلوم (فداء) على ما وصلت إليه؛ طالما لا تستطيع إقناعها بالعكس فهي لا تلومها.

تتبلور الدموع في عينيها، حتى تستحيل صورة القضبان ضبابًا، وتذوب

تابعوا على t.me/book100100

(نضال) في نوم أشبه بالموت.

لا يوقظها إلا ضرب الطبول، يدك المدينة دكًا لعله يبلغ الجانب الآخر من الوادي فيرسل الفزع في قلوب الأعداء، والحاصل أنه لا يبلغ إلا قلوب ضاربيه!

تفرك (نضال) عينيها المثقلتين برماد الدموع، وتتحرك بأفول نحو النافذة الصغيرة تنظر من بين فتحاتها إلى الطريق، والذي اصطفت فيه مقاتلات شابات ومراهقات، يتبعن كهلًا وبعض شباب الرجال اهترأت أجسادهم بآثار الجروح.

تجول بعينيها بحثًا، حتى تدرك (فداء)، واقفةً في مكانها بعتادها الكامل.

لا تدرك عينيها من تلك المسافة، لكنها تراها بعيني الخيال، وترى ارتعاشة أصابعها الخائفة من ألف شيء.

تتراخى يدها عن النافذة، لتسقط إلى جانبها باستسلام، وهي تسترجع حوارها الأخير مع ابنة خالها، ترثيه خوفًا من أن يكون الأخير.

تتوقف عند اللطمة الأولى.. وعبارة خرجت قوية.. وتفكر..

تصيب قلبها رعدة رهيبة.. ويرتجف كل ما فيها انفعالًا..

تفكر.. وتفكر.. وتسقط!

...

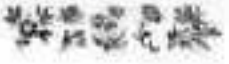

تبلغ الشمس ضحاها، وتنعكس أشعتها الصبوح على سيوف ودروع اصطفت على جانبي الوادي، في انتظار صرخة البدء.

عيون كلها تترقب، لكن بخوف في معظمها، حماس في أقلها، ورغبة حقيقية في الانتصار في أقل الأقل.

الآن تود بعض القلوب لو تراجعت.. بعض العقول لو تتراجع.. بعض الأرواح لو لم تكن.... لكن لا أحد يفعل.

ينطلق أول سهم من أصابع مرتعشة أفلتته دون قصد، ومعه تنطلق أول صرخة بالهجوم.

راية صفراء أمام راية زرقاء.. النقع يتطاير من حوافر الفرسان فيُعمي المشاة.. الرماة يرون تقدم فرسانهم فيقبضون على أقواسهم خشية إصابة الصديق مع العدو.. فرسان كل جيش يرون المسافة بينهم وبين فرسان العدو تتضاءل فينازعون كل مشاعر التردد داخلهم قبل الصدام.

ومن خلف الأشجار الكبيرة في منتصف الوادي.. تظهر!

فتاة مراهقة تركض بلا ركب نحو خط الالتقاء!

فتاة فشلت في مهمتها الأولى بالجانب الأصفر من الوادي، وقررت ألا تفشل بمهمتها الثانية في مركزه.

تمسك بعمود خشبي يحمل راية كبيرة بألوان ثلاثة: أزرق ذات اليمين، وأصفر ذات اليسار، تتوسطهما بقعة كفّ حمراء بلون الدماء، وبرائحتها كذلك.

تركض إلى خط الالتقاء صارخةً في الجميع بالتوقف، يكاد صوتها يعلو فوق صوت المعركة.. يكاد فقط!

هل يراها أحد؟؟ هل يتوقف أحد؟؟ لا تعرف ولا تريد أن تعرف، تواصل الركض فحسب كأنها أوقفت نفسها عليه أبدًا.

تستمر في الركض على خط الالتقاء، وتستمر بالصراخ في الجميع بالتوقف.

تَفرَغ طاقتها لكنها تأبى التوقف.. تتعثر عشرات المرات لكنها تأبى الوقوع.. تسمع أصوات الاجتياح تقترب من الجهتين، لكنها تأبى الالتفات يمنةً أو يسرة.

تدركها ظلال الركبان.. تصدمها أرجل رَكبِهم.. تسقط.. تُدهَس.. تفارق الحياة في لحظات.

وتسقط رايتها أرضًا.. تطحن عمودها الحوافر والأقدام، وتُغرِق قماشها دماء الفريقين.. فتتلاشى حدود البقعة الحمراء تدريجيًا، ويسود لونها الحيادي الراية كلها!

*

وقد صار طقسًا بعد كل قصة، ساد الصمت من جديد.. أصعب كثيرًا هذه المرة، رغم أنها ليست التضحية بالنفس الأولى.

كان (أمير) مجهشًا بالبكاء لا يحاول له كتمًا، (فليش) يكتمه بصعوبة، (سعد) و(ويليام) يتبادلان النظرات الصعبة، و(نور) قد أبى إلا أن يكون صاحب المبادرة كالمعتاد.

ربت على كتف (نضال) برفق، فرفعت رأسها كالمسحورة إليه، ليقول بصوت قوي لم يَخلُ من تأثر:

ـ «هوِّني على نفسك يا (نضال).. شتان ما بين قصتينا يا بطلة؛ في قصتي كان الصراع بين خير وشر.. الحق كان أكثر بيانًا بكثير حيث لا اشتباه.. وأنا الآن إذ أفكر في صعوبة موقفك، لا أعرف كيف كنتُ لأتصرف لو كنتُ مكانك»

يبتسم ابتسامة واسعة.. تفشل هي في الابتسام، وتفشل في الاستجابة.

يهتف (أمير) بحرقة:

ـ «أنتِ بطلة عظيمة يا (نضال)! أعلم أنكِ تحسبين نفسكِ قد فشلتِ لكنكِ لم تفعلي أبدًا.. بل أنتِ الرابحة الوحيدة وسط زمرة الفاشلين أولئك»

تعود فتنكس رأسها وتقول بصوت هو الحسرة:

ـ «وما الفائدة!؟»

تتشنج الكلمات على شفتي (أمير)، فيسحب منه (سعد) الدفة قائلًا:

ـ «نحن نعلم أنكِ لم تفعلي ذلك لتريحي ضميرك فحسب، وأنكِ أقل أنانية من هذا بكثير. ورغم أني في هذه اللحظة لا أدري بالضبط مدى اتفاقي مع

ما فعلتِه أخيرًا، إلا أنني أظن أنكِ فعلتِ أصوب ما بدا لك»

أكد (ويليام) على كلامه:

ـ «بالضبط»

تسألهم بصوت يزداد ألمًا وحسرة:

ـ «إذن لماذا فشلت مهمتي الأولى؟؟»

يدور التساؤل في أعينهم، فتكمل بحرقة:

«لو كنتُ على حق فعلًا، فلماذا لم أجد مثيلتي المأمولة في الجانب الآخر!!؟؟ لماذا لم توجد واضطررتُ للركض وحيدة بين الجيشين!!؟؟ لماذا!!!؟؟»

استعد كل منهم لتقديم رد يوافق رؤيته، عندما سبقهم ذلك الصوت من الأعلى:

ـ «وما أكد لكِ أنها لم توجد!؟»

رفعوا وجوههم جميعًا لأغصان الشجرة وفيرة الأوراق، وقبل أن يلاحظوه أكمل صاحب الصوت:

ـ «كانت لديكِ سويعات قليلة على أقصى تقدير لتبحثي جيدًا في مدينة غريبة عنك.. ما أدراكِ أنها لم تكن متكومة في مخبئها حيث لم تدركي!؟ ما أدراكِ أنها لم تكن في ذات الوقت في الجانب الأزرق من الوادي تبحث هي الأخرى عنك!؟ ما أدراكِ أنها لم تسبقكِ إلى الركض بين الجيشين في معركة سابقة، وفقط لم يلحظها أحد كما لم يلحظك أحد!؟»

وتقدم الشاب فاتح الشعر هادئ الملامح خطوتين، ليظهر من بين الأغصان واضحًا للجميع، وليقول خاتمًا:

ـ «أنتِ لا تعرفين أبدًا ما يدور في الظل»

ابتسامة مريرة مبللة بالدموع ارتسمت على شفتي (أندي)، وقد سبقه أحدهم

إلى ما أراد قوله كما اعتاد طوال حياته. بينما ظهرت استجابة إيجابية أخيرًا على وجه (نضال)، فسارع (أمير) لاستغلالها قائلًا:

ـ «وكما قلتُ لـ(سعد) قبلك، نحن لم نعرف ماذا حدث بعد كلمة [النهاية].. لربما آتت محاولتك أُكُلها بعدها»

«هل تظن ذلك؟؟»، تسأل باحثة عن قشة أمل.

ـ «أنا أؤمن أن التضحيات لا تذهب سدى أبدًا»

ـ «إذن لماذا تنتهي قصتي عند تلك اللحظة!؟؟»

يهز (سعد) كتفيه ويقول:

ـ «لأنها قصة رمزية. قصتك وقصة (نور) من قبلك رمزيتان.. الهدف منهما إيصال مغزى معين وليس استعراض الأحداث ذاته»

يجز (فليش) على أسنانه امتعاضًا، بينما يقول (أمير) مشيرًا لـ(نضال) و(نور):

ـ «والآن تأتينا الفرصة لنعلم أنه دائمًا هناك الأكثر لنلمسه داخل القصص الرمزية»

ويرفع عينيه إلى شاب الشجرة مكملًا:

ـ «بالفعل نحن لا نعرف أبدًا ما يدور في الظل»

يبادله الشاب ابتسامة هادئة، بينما يومئ (سعد) موافقًا، إيماءة تلمحها (نضال) فتضطرب شفتاها نحو ابتسامة قادمة.. يراهن (ويليام) على مناسبة اللحظة، فيربت على فخذيه ويقول:

ـ «حسنًا.. لِمَ لا تسمحون لي باستعراض قصتي؟؟»

تتسع ابتسامة (أمير) ويقول بحماس:

ـ «نعم! نحن لم نسمع قصتك حتى الآن يا (ويليام).. فلنستعرضها فورًا!»

يخص (ويليام) (نضال) بنظرته الأخيرة قبل بدء قصته.. وليعلو صوت الصافرة!

....

لا يجب احتسابه

لم ألتفت لأرى الإشارة الصاعدة للصاغرة.

وبعد ثانية واحدة كنت أسقط أرضا تهرسني الأجساد

المتساقطة فوقي.

أصوات الصراخ تخترق أذني حتى لا أسمع غيرها.

ألن تأتي الصاغرة الثانية!؟

ثانية ثوان.. أربع ثوان.. خمس ثوان.. ست ثوان..

لم تأت!!

خف الحمل من فوقي تدريجيا حتى قام آخر زملائي عن فوقي.

فقط ليجذب ثان جسدي الخفيف ليرفعني عاليا إلى ما فوق

كتفيه، ولتبدأ مسيرة الاحتفال!

يضطرب كياني بين مشاعر متضاربة، ليس من ضيئها الفرح،

وأرى أمامي آلاف المشجعين يهتفون لي، فتتسع عيناي أكثر

وتتسارع ضربات قلبي أكثر فأكثر، بينما تفكيري يقاوم الشلل.

ألتفت فأرى بنصف عين حكم المباراة واقفا بين عدد من لاعبي

الفريق المنافس يجادلونه جدالا حاترا، ومن الطبيعي أن يكون

كذلك؛ نتيجة المباراة لا تعني لهم الكثير، أما لنا فتعني

الصعود إلى دوري الأضواء أخيرا! أخيرا!

لكن...!

تابعوا مكتبة على t.me/book100100

«كانت عرقلة عظيمة يا «ويلي».. قد تصبح مدافعا كبيرا في المستقبل»

كانت هذه من أهم الإشادات القليلة التي حصلت عليها في حياتي.. ولسبب ما تمسكت بها وقررت أن أصبح مدافعا كبيرا.. ربما لأن الدفاع يناسب طبيعتي المحبة للذود وتقديم الدعم من الخلف.

لحظة واحدة من الحماس رسمت خطتي لبقية حياتي.. وشهدت اللحظة التالية لها شروعي في تنفيذ تلك الخطة!

في بلادي تبدأ رحلة احتراف كرة القدم منذ الطفولة، لذا فمراهق في الرابعة عشرة من عمره هو متأخر كبير. انطلاقا من هذا المبدأ بذلت مجهودا مكثفا لتعويض ما فاتني من أشواط. التحقت بناد للهواة وانتظمت في تمارينه، مواظبا على تمارين إضافية يومية. لم أسمح لنفسي يوما أن أعيد التفكير؛ اعتقدت أنني قد لا أستطيع استحضار نفس الحماس الكافي للسعي

لأجل هدف آخر.. ولنفس السبب قررت ألا أفشل في تحقيق هذا الهدف، فإن كنت محدود الموهبة فسأنهيها جيدا، عزما وجلدا.

بعد سنوات قليلة حملت أولى بوادر تكلل سعيي بالنجاح؛ كان ذلك بانتقالي إلى أحد أندية المحترفين، ليمتلئ قلبي أخيرا أملا وتفاؤلا. حقا لا يوجد شيء أروع من الشعور بأنك أصبت الاختيار، وبأنك على طريق النجاح فعلا.

غير أني لم أسيء للتفاؤل أن يزيدني إلا عزيمة وإصرارا؛ فضاعفت مجهودي واجتهادي.. يرتفع بي طريقي وينخفض، لكني أواصله دؤوبا في كل أحواله.

الآن أنا في الرابعة والعشرين. استغرق مني الأمر **10** سنوات لأصل لناد ينافس على الصعود للدوري الممتاز. هنا لا ألعب كل المباريات، لكني مازلت أسعى لأفعل. هذا الموسم فرصتنا للصعود لدوري الأضواء كبيرة، وهي فرصتي الذهبية

للانتقال إلى نار كبير قبل فوات الأوان، لذا سأقاتل من أجلها

بكل قوة في كل مباراة سأشارك بها!

لأول مرة أسمع الجماهير تهتف باسمي!!

ومن النادر أن تهتف الجماهير للمدافع ما لم يحرز هدفا حاسما كهدفي هذا! قد يصيحون ويصفقون لدى إنقاذه لهدف محقق للخصم، لكن هذا لا يدوم لأكثر من ثانية، في غمرة انشغالهم بالهجمة المرتدة. وفي غرف الدرجة الثانية لا تحظ الجماهير أسماء المدافعين غالبا.. لابد أنهم تساءلوا بعضهم لبعض عن اسمي لأجل أن يهتفوا به الآن!

زملائي في الفريق يحرنون اللعب ركضا كالمجانين ويحتضنون بعضهم بعضا بفرح عظيم.. المدير الفني العجوز يتخلى عن وقاره ويتقافز في مكانه غير مصدق.. مدرجات فريقنا تشهد نوبة جنون عامة. الكل كان سعيدا بشكل استثنائي، وأنا لم أستطع الابتسام حتى!

مازلت لا أصدق كيف حدث هذا!!

.....

قبل أن تعتمد لوحة النتائج الصفرين المتوازيين كنتيجة نهائية للمباراة، ركض فريقنا كله حتى حارس المرمى إلى منطقة جزاء الخصم من أجل الركلة الركنية الأخيرة، رافعين شعار «الفوز أو لا يوجد ما نخسره»، وأنا أحد مدافعين اثنين باقيين في التشكيلة فقط، وقد أبقى علي المدرب لعلمه بأني من يقاتلون حتى اللحظة الأخيرة. أما وقد أتت تلك اللحظة، كان مطلوبا مني أن أحمي مرمانا تعادلنا لنا وفقط.. لنا ولا شيء بعدنا! ركلت الركلة الركنية عالية، والجميع يحدق بها كأنها جوهرة الخلود.. تطلق الأرجل عن الأرض، وترتفع الهامات عاليا؛ علها تلمسها وفقط..

نطحة طائشة للكرة.. ترتد وتصطدم بعشرات الأقدام تركلها بشكل عشوائي مضطرب.. وفي لحظة أجدها تمر من أمامي!! لن أدركها ولو مددت ساقي حتى أتفسخ، لمحة ليسارها تخبرني أن لا شيء بعدي سوى خط الخروج!

دون أن أفكر أقفز طائرًا! لم أفكر ولم أقرر ولم أعِ مني أنني لم أنفذ رأسية طائرة قبلًا، قفزت مرتها برأسي نحو الكرة وفقط! أسابق الزمان والمكان وقوانين الحركة جمعاء في طريقي إليها، في اللحظة الأخيرة تدركها جبهتي، فتلمسها صغيرة من اتجاهها بقدر يسير.. لكنه كان كافيًا لترتطم بباطن القائم وترتد إلى داخل المرمى، وإلى الشباك، وإلى دوري الأضواء!

......

فجأة أجدني وحيدًا في ركن الملعب!!

لقد انتهى الاحتفال بالهدف، وأنزلني زملائي فتحركوا عائدين إلى نصفنا من الملعب في انتظار مضي الثواني الأخيرة من المباراة. وحدي بقيت في مكاني مأخوذًا بالذكرى الأقرب. نداءات زملائي المتأججة بالنصر دفعتني للتحرك بسرعة عائدًا بدوري إلى مكاني. ألتفت في طريقي إلى الحكم فأجد

[watermark]

النظرة إياها على ملامحه.. هذا حكم يستعد لإنهاء المباراة بعد ضربة الجزاء مباشرة!

أتجاوز خط منتصف الملعب بخطوات، فأسمع صافرة الحكم لاستكمال اللعب، وهنا أبدأ بالركض!

أرى أضواء النجاح تتألق أمامي وتقترب..

أواصل الركض!

أرى الهلاعب العالمية، وأشهر النجوم من اللاعبين في مواجهتي أو إلى جانبي..

أواصل الركض!!

أرى نوادي الهعجبين.. ملصقات كبيرة تحمل صورتي.. كاميرات التليفزيون.. وقميصا فاخرا تحمل حروف اسمي بحروف أنيقة لامعة للمرة الأولى..

أواصل الركض!!!

ضربة مركز متكاسلة، يهم معها الحكم بإطلاق الصافرة

الثانية، فيفاجأ بيدي تنتزع الصفارة من فيه، فآخذها وأسقطها

بعده بفعل قفزتي الهوجاء.

يعلو الذهول وجه الحكم، وتتحرك يده إلى جيبه لانتزاع بطاقة

تأديبية لي، فأفاجئه أنا بصرخة!

أن كانت قفزتي متأخرة!

ولم تكن جبهتي لتدرك الكرة لولا اندفاعة يدي اللاإرادية

لسند الكرة إلى رأسي بحركة كانت خفية على أكثر المراقبين.

أصرخ للحكم معترفا وعيناي غارقتان في الدموع.. تحدق في

وجهي مواصلا نوبة الذهول، وأنا أنظر له برجاء محترق.. هذا

هدف لا يجب احتسابه!

في اللحظة التالية نالتني لكمة قوية من زميلي المهاجم الضخم،

لأسقط أرضا بعنف وبفم نازف، وعلى إثرها يطلق الحكم

صفارة الإنهاء ويندفع مهرولا للخروج من الملعب، بينما

يتكالب على زملائي المسعورين لتأديبي، وقد أوشكت أن

أحرمهم من حلمهم المنشود بعدما منحتهم إياه.

استعدت وعيي أخيرا، لأرى الظلام وأسمع السكون يغلفان

الأجواء. وأنا مازلت مكاني، مغلفا بالكدمات أفترش أرضية

الاستاد الخالي إلا مني، ويبدو أن جميع الحضور بلا استثناء قد

اتفقوا على تركي ها هنا عقابا لي على غبائي واستهتاري؛

ولأصير عبرة لمن لا يعتبر.

أبتسم في وجع مستعيدا ما حدث، وأفكر فيما فعلت.

ولماذا فعلته!؟؟

هل كان صوت ضميري أعلى من صوت حلمي نفسه!؟؟

أم فقط خفت ألا يكتمل حلمي وقد غششت في الطريق إليه!؟؟

بألم أنفض هذه الأفكار عني، فقد انتهى الحلم على أي حال،

وأحاول القيام.

أفشل فشلًا تامًا في القيام، وأتحسس ساقي بألم جم، لأدرك أن الحلم يؤكد على انتهائه بحلم إضافي.

وأنه بعد سنوات من السعي إليه، بات حلمًا لا يجب احتسابه!

...

أغلقتُ دفتر مذكراتي وعلى وجهي نفس الابتسامة دؤوبة الارتسام عليه كلما قرأتُ هذه الحكايات المكتوبة بأسلوبي الحماسي إياه، وبالخط المبعثر على حواف السطور.

عشرون عامًا مرت على لحظة نهاية الحلم.

وعشرون ألف مرة استعدت فيها لحظة الاعتراف وفكرت فيه.

إلى أي مدى كنتُ مصيبًا فيه؟؟

إلى أي مدى وقد خسرتُ كل شيء بسببه؟؟

إلى أي مدى وقد ذهب اعترافي نفسه سدى؟؟

أنتبه لصوت قطرات المطر على زجاج نافذتي الصغيرة، فأتحرك إليها ناظرًا من خلاله لأراقب الشارع الغارق في الظلام بالأسفل.

أتناول شمعتي، وأعود إلى صومعتي الصغيرة أتأمل تفاصيلها على ضوء الشمعة المكافح.

تذكاراتي من المحافل الرياضية المختلفة.. حائط من صور عديدة لي خلال رحلتي الكروية.. وقميص متسخ بالطين والدماء، كُتِبت على ظهره حروف اسمي بخط مبعثر الحروف.

عدتُ لأجلس على الكرسي العتيق، ألفّ نفسي بالبطانية المهترئة، وأمسك من جديد بدفتر المذكرات، لأقرأ آخر ما كُتِب فيه، بخط منمق هادئ هذه المرة.

«لقد ربحتُ نفسي»

وأبتسم في رضا وسعادة.

تابعوا على t.me/book100100

مخالفًا لطقس الصمت المقدس، انفجر (أمير) هاتفًا:

ـ «ماذاااااااا!!!؟»

التفت إليه (ويليام)، وقال مبتسمًا بهدوء:

ـ «ماذا!؟»

يقلب نظراته في الحاضرين يبحث عمن يشاركه استنكاره:

ـ «ما هذه النهاية البائسة!؟»

يستمر (ويليام) في الابتسام:

ـ «ماذا توقعت؟»

ـ «توقعت وضعًا يثبت أن التضحية لا يمكن أن تكون خسارة، وأنه يمكنك أن تنهض بعدها لتحقق أفضل مما أملته سابقًا.. توقعت إنسانًا ناجحًا.. توقعت أسرةً وأحبابًا وسعادة.. أما هذه النهاية فمُقبِضة للروح جدًا رغم جملة الخاتمة المغلفة تغليفًا بالرضى»

أشار (ويليام) إليه وقال:

ـ «هذا هو المقصد من القصة تمامًا يا (أمير)»

واستعان بحركات يده مفسرًا:

ـ «أنت ربطتَ التضحية في القصة بالنهاية وافرة السعادة بالضرورة، وهذا خطأ: فلا يجب أن يكون جزءًا من تضحيتنا انتظارُنا للمردود الطيب بعدها»

يلتفت لـ(نضال) مكملًا:

ـ «ولا حتى انتظارنا لنجاح تضحياتنا بالضرورة، طالما لم نملك ما هو أفضل لنقدمه. نحن نضحي لأنه توجب علينا ذلك.. نتخذ القرار الصواب لأنه الصواب، وليحدث بعدها ما يحدث»

تحدق (نضال) في عينيه لثوان طويلة، ثم تجد الابتسامة طريقها للشفتين الشاحبتين أخيرًا. يرفع (فليش) يده عاليًا في انتصار، بينما تقول (نضال) بامتنان جم:

ـ «شكرًا لك.... شكرًا لكم جميعًا»

تتسع ابتسامة (ويليام) أكثر وأكثر، ثم أنه يلمح العبوس المتجلي على وجه (نور)، فيسأله ضاحكًا:

ـ «ماذا يا (نور)!!؟»

يقول (نور) بضيق يحرص ألا يخفيه:

ـ «رغم كل ما تقول، ستصل للقارئ شحنة سلبية عن مآل التضحية في نهاية القصة.. وأنت لن تجلس مع كل قارئ لتشرح له المغزى والمقصد من القصة كما فعلتَ معنا»

يبتسم (ويليام)، ويستعد (أمير) لموالاة (نور)، حين ينطق (سعد) قائلًا:

ـ «لن تصل شحنة سلبية لأي قارئ من نهاية القصة»

يلتفتون له مندهشين متسائلين، فيرسل نظرة ماكرة إلى (ويليام) ويقول:

ـ «أليس كذلك يا (ويلي)؟؟»

يقهقه (ويليام) رغمًا عنه، بينما يظل (نور) و(أمير)، وقد انضم لهم (فليش)، على ذهولهم، ويسأل (أمير):

ـ «ماذا هناك!؟ لا أفهم!»

يهز (سعد) كتفيه ويقول بابتسامة ولمعان عين واثقة:

ـ «كوننا آتين جميعًا من قصص خيالية، فكما قال (نور)، من العجيب أن يظهر مآل التضحية بائسًا هكذا، لمقصد غامض يحتاج لتفسير.. أضف لهذا أنه مع كل أحداث القصة المذكورة بتفصيل شديد، أتت النهاية مرتبكة محشوة غير متماسكة قليلًا»

وسكت عن الإكمال مرسلًا لهم نظرة خاصة، فاتسعت أعينهم دهشة، والتفت (أمير) إلى (ويليام) قائلًا:

ـ «(ويليام)! هل حرّفت نهاية قصتك!؟؟»

يبتسم (ويليام) بمكر ويقول:

ـ «بعض الشيء»

يقفز (أمير) مكانه حنقًا ويهتف:

ـ «سحقًا يا (ويليام)!! لقد ضايقتني حقًا!»

يدير (ويليام) ناظريه بين (أمير) و(نور) ويقول:

ـ «فقط لإيصال معنى معين هام.. معنى ما كان ليصل لـ(نضال) إلا بقصة.. وهذا لا يؤثر على أصل القصة، وكشفه كذلك لا يلغي تأثير القصة في إيصال ذاك المعنى لكم.. أليس كذلك؟»

يقابله الحنق المتصاعد، فيضحك ويلتفت إلى (نضال) سائلًا:

ـ «أليس كذلك يا (نضال)؟»

تضطرب شفتا (نضال) بين ابتسامة مهتزة وإجابة تائهة، ويظهر (فليش) أمامه فجأة قائلًا بمزاح حانق:

ـ «كما تقولون في بلادكم، (أنت هالك يا رجل!)»

يضحك (ويليام) ويقول:

ـ «هذا ليست بلادنا»

المزيد منه: «وإن يكن، الهلاك واحد»

يكتم (أمير) غضبه بصعوبة، ويسأله:

- «إذن، كيف كانت النهاية قبل التحريف؟؟»

يبتسم (ويليام) ويرفع يده مُظهرًا خاتم الزفاف بها مجيبًا:

- «كما رأى الأمير المُلهَم.. إنسانًا ناجحًا، وأسرة وأحباب وسعادة.... تقريبًا كانت محاربة فكرة (الحلم الأوحد) أحد أهداف النهاية كذلك»

تداخل الشعور بالفرح والانتصار مع الحنق في داخل (أمير)، فعجز عن الرد، وإن فضحته ابتسامته وتورد وجهه الواضح للجميع، بينما سأل (نور) (ويليام) بهدوء:

- «وأنت خبأت عنا هذه النهاية المشرقة الجميلة، وصدّرت لنا نهاية كاذبة بائسة، رغم أنك سمعت بنفسك قول (أندي) سابقًا (لماذا كل قصص التضحية تنتهي دائمًا بنهايات حزينة؟؟)، فقط لتوصل ذاك المعنى المعين!؟»

(ويليام) مجيبًا بضحك خفيف:

- «نعم، وللهدف الذي ذكرتُ.. وأنتم كنتم ستعرفون الحقيقة بنفسكم أو مني لاحقًا.. لذا لا مشاعر سيئة من فضلك»

يغمض (نور) عينيه يفرغ عصبيته، ودون أن يفتحهما يشير نحو (ويليام) قائلًا:

- «(فليش)، اقتله!»

تناثر غبار الضحك في المكان بشكل مبهج، و(أمير) أسعدهم بشجرة التواصل التي نبتت من أرضية ميتة لتملأها بنبض الحياة.

ذكّره التشبيه بفتى الشجرة، فرفع عينيه إلى أغصانها بحثًا عنه، وكما توقع لم يجده.

يحرّك أصابعه بتردد معين محاولًا إدراك الوقت في عالمه الآخر.. ربما ليس لديه الكثير ليستيقظ.. عليه استثمار كل لحظة!

رفع صوته بالنداء:

ـ «Heeey! يا فتى الظلال.. ألا تشاركنا حكايتك؟؟»

رفع الرفاق عيونهم بدورهم إلى الأشجار، لكن لا جواب سوى الحفيف.

يضيّق (أمير) عينيه قائلًا بتماكر:

ـ «حدسي يخبرني أن اختفاءه وراءه قصة مثيرة»

يقول (ويليام) مازحًا:

ـ «ربما هو زائر من عالم خيالي آخر، ألقى كلمته وذهب»

(أمير) يهز رأسه نفيًا:

ـ «لا يمكن؛ كل شخص هنا باستثنائي هو بطل قام بالتضحية في قصة ما»

ـ «باستثنائك أنت فقط!؟»

يفاجئه الصوت الرفيع من خلفه، فيلتفت مجيبًا بارتباك:

ـ «آسف يا (فليش)، للحظة نسيتك.. قصدت (باستثنائي أنا وحارس مملكتي الأمين) بالطبع»

ينظر له (فليش) محاولًا اختراق خباياه، ثم يقترب منه بعينيه قائلًا يضغط على كل حرف:

ـ «أشعر أنك تخفي شيئًا عني يا (أمير)!»

يضحك بارتباك:

ـ «ماذا قد أخفي عنك!؟»

يجيب مقتحمًا عينيه أكثر:

ـ «شيئًا عن ماضيّ الذي لا أذكره مثلًا؟»

يرد محاولًا التهرب:

ـ «وأنت تقولها.. أنت لا تذكره.. إذن فكيف سأذكره أنا!؟»

ـ «هذا ليس بصعب على الأمير» (سعد) يجيب بخبث، فيلتفت له (أمير) قائلًا:

ـ «كُن محضر خير يا (سعد)»

يحاصره (فليش):

ـ «لاا تحاول التهرب! أنا أفهم ألاعيبك جيدًا. اعترف الآن!»

ـ «أعترف بماذا!؟»

ـ «لماذا أنا هنا!؟»

ـ «لأنك مساعدي الفانتازي!»

ـ «توقف عن الكذب!»

صوت نسائي يهتف: «بل توقفا أنتما عن هذا الهراء!!»

يلتفتان والبقية إلى مصدر الصوت، فيطالعهم القوام الممشوق لامرأة شقراء متوسطة الطول، تضع كميات من مساحيق التجميل تعطيها عمرًا يتلاوع بين السادسة عشرة والخمسين، ترتدي زيّ زفاف عاري الذراعين مع بقعة دماء تامة الاستدارة على صدره، وتحدج الجميع بنظرات ساخطة.

رغم شكل بقعة الدماء العجيب، ابتلع (أمير) ريقه وقال بأدب:

«آسفان لو أزعجناكِ يا سيدتي.. لم نقصـ...»

تقاطعه بحدة: «أنا لست (سيدة).. ولن أكون أبدًا! لقد انتهى كل شيء! كل شيء قد انتهى!»

أتى لخاطر (أمير) الإفيه الكوميدي الشهير (إيش هذا والله نفس المعنى!)، لكنه كتمه داخله، وحاول تلطيف الجو قائلًا:

ـ «يمكنك يا (سـ... (آنستي) أن تحكي لنا قصتك؛ علنا نخفف عنكِ ولو قليلًا»

فردّت ذراعيها ودارت ببطء في حركة شبه مسرحية وقالت:

«أي قصة وأي تخفيف!؟ وأنتم مشغولون بالحكي عن حروب ومعارك وكرة قدم وأشياء سخيفة!!؟ كيف يكون عالمًا لأشجع أبطال التضحية ولا أسمع حكايةً واحدة عن أسمى ما قد نضحي لأجله!!؟»

ابتسم (ويليام) وسألها بكياسة:

ـ «وما هو؟»

هتفت بقوة:

ـ «الحب!! أي تضحية قد تكون أسمى من التضحية من أجل الحب!!؟»

لحظة من الصمت لاستطعام الكلام، ثم يقف (نور) بجسده الكبير ويقول لها:

ـ «في الحقيقة يا صديقتي -لم أعرف اسمك بعد- مدى سمو ونبل التضحية لا يرتبط بدوافعها فقط، بل بقدرها ومدى البـ...»

«هراء!»، تقاطعه بحدة صادمة، فيتحفز (أمير) مهاجمًا:

ـ «لا يحق لكِ السخرية من تضحيات البقية ها هنا؛ إذا أردتِ أن يحترم الجميع تضحيتك»

تهتف في وجهه:

ـ «وهل يجرؤ أحد على عدم احترام تضحيتي السامية!!؟»

يكظم (أمير) غيظه بصعوبة، بينما يبتسم (سعد) ويخاطبها بهدوء مغلف بالاحترام:

ـ «كما لابد وأنكِ لاحظتِ يا آنستي، الجميع هنا لا يقتنع إلا بالمشاهدة. لِمَ لا تدعين لقصتك شأن إفحامنا!؟»

رأت، ورأى الجميع، التهكم يتلوى في كلماته المهذبة فلا تستطيع له إمساكًا. شمخت بأنفها وقالت:

ـ «قصتي أسمى بكثير من أن تُحكَى أو تُشاهَدا!»

وتجول بناظريها في أعينهم قليلًا ثم تقول متراجعة:

ـ «لكن لا بأس.. لإفحامكم فقط!»

....

أنخليتا

تابعوا على t.me/book100100

انطلقت صيحات الاحتفال من الجمع الكبير المحتشد بالساحة الخارجية للكنيسة، لدى وصول العروسين إليها في سيارتهما الحمراء الصغيرة، والمحملة بذكريات سنوات حبهما الثمانية.

فور خروجها من السيارة، تركض إليها مربيتها (سوكورو) تحتضنها باكية.. الصغيرتان (روزالين) و(كاتيا) تنثران بتلات الورود على العروسين.. بينما ابتسم (سانتانو) فخرًا بابنه الذي بدا متأنقًا فوق العادة في ليلة زفافه.. وحتى (لوليتا) كتمت حقدها راسمةً ابتسامة باردة على شفتيها.

كانت لحظة لم يظن أغلب الحضور أنها قد تأتي أبدًا.. ولكن ها هي ذي تأتي أخيرًا!

غير أن أحدًا لم يشعر بنفس القدر من السعادة الذي شعرت به (أنخليتا)؛ فها هي -أخيرًا- تنأبط ذراع حبيبها إلى الكنيسة ليربطهما رباط الزواج المقدس.

ابتسم الأب (خوان) لدى دخول العروسين الجميلين عليه، وراقب بسعادة خطواتهما الحثيثة في طريقهما إليه لتلاوة نذور الزواج.

وقفا بين يديه، ونظرا لبعضيهما، ليذوب كل منهما في مقلتي الآخر، يسترجعان كل ذكرياتهما السعيدة معًا، حتى انفصلا عن كل ما حولهما، وعن العالم كله.

لم يوقظهما من سلسال الذكريات إلا صوت الأب (خوان) يُذكِّرهما بما هما هنا لأجله، فضحكا باستحياء خفيف، واستعدا خلف الأب لتلاوة النذور.

ولكن فجأة، يقتحم (تيودور) الكنيسة صارخًا:

- «لن تكوني لغيري (أنخليتاااااااا)!!»

تنفجر الصدمة على وجوه الجميع؛ إذ كيف هرب (تيودور) من السجن رغم

الحراسة المشددة!!؟

يتركهم (تيودور) لصدمتهم، وينتزع مسدسه، راكضًا نحو العروسين، مواصلًا صراخه:

ـ «سأقتلك أيها اللعيـــــــن!!»

يفزع الأب (خوان) ولا يستطيع التحرك، وكذلك يفعل الشرطي (باتيتيو) والطبيب (أليساندرو) والمعلم (سبلنترو)؛ مما يترك المساحة الكافية لـ(تيودور) ليرفع مسدسه تجاه العريس المذهول.. لكن (أنخليتا) تهب قافزةً أمام عريسها صارخة بالتصوير البطيء:

ـ «لاااااا! لا تقتل حبيبي (روماريووو)!!»

وتنطلق عشر رصاصات تباعًا، لتصيب كلها (أنخليتا) المسكينة، فتسقط في حضن (روماريو) هامدة.

وهنا يتحرك الجميع -فجأة- للإمساك بـ(تيودور)، الذي يسقط منهارًا وقد أصاب الفتاة التي أحبها من قلبه واعتدى عليها ثلاث مرات من قبل بدافع الحب!

أما (روماريو)، فيحتضن (أنخليتا) بعشق، ويسألها والدموع الساخنة تسيل من عينيه وأنفه إلى فمه:

ـ «لماذا (أنخليتا)!!؟ لماذا!!!؟»

ترد (أنخليتا) بشفتين مرتعشتين من أثر الرصاص:

«لأني.... لأني.... أحبك يا (روماريو سانتانو لوسيو بارتسيو دي تيريزا)»

يعض (روماريو) على شفته السفلى في ألم جم، ويدعو الله ألا تموت حبيبته هذه المرة أيضًا.

تصل عربة الإسعاف فورًا، وتحمل (أنخليتا) التي تلوث ثوب زفافها ببقعة

حمراء مستديرة عند الصدر، و...

ينفجر (أمير) في وجهها فجأة:

«مااااا هـــذاااا الهبللل!!!؟»

تنظر له (أنخليتا) بدموع ملتصقة بوجنتيها، وتقول بأداء مسرحي عميق:

- «إياك أن تسخر من قصتـــي... قصة حبـــي... قصة عشقـــي»

يصرخ (أمير) فاقدًا أعصابه:

- «(فليييييش)!!»

يظهر (فليش) بينهما فجأة قائلًا بجذل:

- «على الرحب والسعة سموك!»

ويمد عصاه فتستطيل إلى طول أربعة أمتار، ثم يرفعها عاليًا على طريقة لاعبي الجولف، قبل أن يطوحها بدقة لتنال (أنخليتا) وتُطيح بها بطريقة كارتونية إلى ما وراء الأفق.

يغمز (فليش) لـ(أمير) ويقول راسمًا بأصابعه علامة التمام:

- «هذه ضربة تُوصلها للمكسيك رأسًا!»

يزفر (أمير) يفرغ انفعاله، بينما يسأله (ويليام) مازحًا:

- «كيف وصلت هذه الأنخليتا إلى هنا أيها الأمير؟!»

يهز كتفيه: «لا أعرف.. لا شك أنها جرعتي اليومية من الكوابيس وقد أتت مُركَّزة»

ويلتفت لـ(فليش) من جديد قائلًا:

- «أرأيت؟ ليس كل من هنا بالضرورة ممن قدموا تضحية من قبل»

متذكرًا الأمر لحظتها فقط، ضيّق (فليش) عينيه ناظرًا لـ(أمير)، ثم قال:

ـ «لستُ مرتاحًا لك!»

ضربه (أمير) على كتفه المدبب وقال:

«دعك من هذا الآن.. لقد أضاعت صدر الكاتشب تلك الكثير من الوقت الثمين، ولا أعرف كم تبقى لي هنا، لذا يجب أن أستغل كل دقيقة قادمة»

وقفز على غيمته الصغيرة، ليرتفع بها عاليًا، وينظر من الأعلى إلى أرجاء عالمه الصغير مكملًا بحماس:

ـ «مازالت هناك العشرات من قصص التضحية العظيمة لم أشهدها بعد!»

....

السند

يكره المطلع المائل؛ صعوده أشق من صعود السلالم.. لماذا لا يضعون بعض الدرجات هنا!؟

ينتهي صعودًا إلى رصيف القطار، فيستند على عمود صغير يلهث.

كان يوم عمله اليوم صعبًا، ككل يوم عمل.

ينظر يمينًا إلى الأفق في انتظار وصول قطارها.

اشتاق لها.. قلبًا وقالبًا اشتاق لها!

نعم، هو قد سار طوعًا على مبدأ (الحب يأتي بعد الزواج) السائد في وَسَط نشأته.. ولو سألته اليوم عن مدى صحة المبدأ لقال إنه حتى اللحظة لا يدري ماهية الحب بالضبط، لكن ما هو موقن منه أن شيئًا ما يولد بعد الزواج فعلًا.. رابطة إنسانية خاصة، تغذيها العِشرة حتى تضحى ركيزة حياتية.

دائرة الضوء الأصفر المميزة تظهر في الأفق.. شريكة حياته وسند أيامه على مشارف الوصول!

كلمة (سند) ذكرته بشيء آخر، تقريبًا حاول تناسيه.

عطايا الزيارة التي يُحمِّل بها أهل زوجته ابنتهم لدى رحيلها بكرم مبالغ فيه.

لا ينكر أن تلك الخيرات شدَّ ما تعينهم على استكمال أيام شهورهم دون الحاجة.. حتى أنه لا يعلم إن كانا قادرين على الاكتفاء دون تواجد تلك الزيارة ضمن الجدول الشهري. ليس من عادته الكفر بالنعمة أو التنقم عليها، لكنه يحتاج لمعجزة شهرية حتى يستطيع حَمْل عطايا نسائبه حتى باب بيته، حيث لا مواصلة ممكنة إليه، ولو بالغالي.

الضوء يقترب.. تشوّق وتوجّس!

ترتعش ركبتاه منذرتين بالوقوع في أية لحظة.. حتى جسده يُحذِّر عقله من التحميل!

يخاطبهما عبر أوصاله الضعيفة محاولًا إقناع الجميع: «لعل الحمل أخف هذه المرة.. نحن في بداية الموسم، ولابد أن سعة مال حَمِيّ ذهبت في شراء الأسمدة.. لابد أنه اشترى الأسمدة بكل ما يملك بالفعل.. لعله فعل.. يا رب اجعله فعل!».

تمر القاطرة من أمامه مباشرةً فجأة، وقد شرد بخواطره عن القطار الوالج للرصيف، فيكاد يتعثر ساقطًا.

يتوقف القطار أخيرًا.. فيتراجع متلافيًا سيول النازلين وأعاصير الصاعدين.. مترقبًا.. يعرف أنها ستنزل بعد انتهاء العاصفة كما أوصاها سابقًا، ولا خوف من ذلك كون القطار يقوم بالتخزين في محطتهما.

حسنًا.. بُقجة كبيرة.. والصغير.. بُقجة كبيرة والصغير.. ماذا سيحمل!؟

(يتحرك من بعيد باحثًا عنها بعينيه بين العربات)

يكاد يسقط إنهاكًا بدون حمل.. لن يستطيع حمل بقجة كبيرة ممتلئة أبدًا.. سيحمل الصغير!

موقفه أمامها؟ ستُقدِّر.. ستُقدِّر بالتأكيد.. لطالما كانت نِعم شريك الحياة.. بنظرة واحدة في عينيه ستدرك حالته.. وستبتسم وتتطوع هي مُرحِّبة بحمل البقجة.

نظرة الناس! هو لا يستطيع تجاهل نظرة الناس إليه إطلاقًا؛ هذا شيءٌ طُبِع عليه، غير أنه يشعر برغبة جارفة في تجاهل أهل الأرض بأسرهم اليوم!

حسنًا.. كُلّ مانعٍ حُلّ.

لكن....

هو لا يستطيع جعلها تحمل الثقل بدلًا عنه! لن يتحمل رؤيتها تخفي ألمها وتعتصر عضلاتها لئلا تأخذ استراحة عن الحمل فتُحرجه! هي لو استطاعت رفضًا للعطايا من أجله بالتأكيد فعلت، لذلك لم يَشُق عليها بالإنكار يومًا.. ولنفس السبب....

لا! هو لا يتحمل ولا يستطيع ولا يقبل أبدًا!

يلمح طرف خمارها ورأس الصغير من بعيد على باب العربة السابعة.

لعل البقجة ليست بذلك الثقل.. ستكون بقجة خفيفة هذه المرة.. يا رب! يا رب!

يدركها أخيرًا.. واقفةً تحمل الصغير تكاد تبكي من الأسف.. وعلى جانبيها بقجتان كبيرتان!

ركبتاه تولولان!

يعتصر شفتيه بابتسامة حزينة، مبادرًا إياها والصغير بسلام سريع.. ثم يندفع فيحمل البقجتين ويتحرك بهما متقدمًا إياها بسرعة.

تربت يدها الحانية على كتفه الهزيل.. فتبتسم آلامه.. حريصًا ألا تلتقي عيناها بعينيه حتى باب البيت.

باني الجسر

في زمان بعيد.. وفي سهل خصب في أحضان الجبال.. كانت قرية هادئة أهلها مسالمون.. يعتمدون على الزراعة والنهر النازل من بين الجبال في مأكلهم ومشربهم.. وتشيع بينهم روح الود والإخاء.. حتى ليُمكن عدّهم القرية الأكثر أمنًا وسلامًا في الأنحاء.... لولا وجود (جانورن).

كان (جانورن) متعملقًا ضخم الجثة.. كثيف شعر الرأس والوجه.. يسكن مغارة في حضن الجبل في الطرف البعيد للسهل.. يزرع نباتات غريبة يتغذى عليها بشراهة.. ويهبط إلى القرية بعض الليالي المقمرة يحمل برميلا ضخمًا.. فيثير الفزع في قلوب أهلها.. حتى تكونت بعض الخرافات عن (وحش الليالي المقمرة جانورن).

أضحى أهل القرية يرهبون الخروج في كل ذات بدر.. رغم أن أكثرهم لم يحتك بـ(جانورن) ليلةً.. وكلهم لم يتعرض للأذى بسببه.... حتى كانت (دِل).

وكانت (دِل) الشابة اليتيمة أولى من احتك بـ(جانورن) الضخم.. وجدوها في الصباح المبكر مغشيًا عليها تحت شجرة وارفة بالقرب من النهر.. وعرفوا منها بعد إفاقتها أن (جانورن) صدمها ببرميله الثقيل أثناء تحركه الأهوج.

أضحت (دِل) المهمّلة شخصية شعبية فجأة؛ فقط لأنها احتكت بالعملاق.. حتى أنها تلقت خمسة تقدمات للزواج في يومين.. وهي التي كانت في ذيل قوائم كثيرة نسبةً لجمالها المتواضع وأنوثتها الباهتة.... غير أن (دِل) -على غير المتوقع- لم تُبدِ شغفًا فعليًا بكل ذلك!

(دِل) صارت غريبة الأطوار قليلًا.. شاردة أغلب الوقت ولا تتحدث إلا نادرًا.. حتى انقشع الشغف بها وسرت الشائعات عن كونها مُسّت من قِبل (جانورن).. ثم أقسم البعض أنهم رأوها تسير نحو الطرف البعيد للسهل.. وصارت الريبة قلقًا.. ثم صار القلق توجسًا.. وأخيرًا استحال التوجس رعبًا حين اختفت (دِل).

لم تكن هناك أماكن كثيرة للبحث عنها فيها.. وبدا غالبًا أنها ذهبت إلى (جانورن) ولم تعد.

كان عسيرًا على أهل القرية مَن جُبلوا على المسالمة حتى تشرّبوها أن يفكروا في مداهمة عرين (جانورن) ليُخلّصوا (دِل) إن كانت لا تزال حية.. دعَّموا ذلك بكونها كررت ذهابها إليه طوعًا.. وأنهت (دِل) ارتباكهم بنفسها.. حين ظهرت هي لأول مرة في أول ليلة مقمرة بعد اختفائها.. ظهرت بدلًا من (جانورن).. تحمل دلوًا خفيفًا.. ملأته من النهر ثم عادت به نحو الطرف البعيد من السهل.. بعدها تكرر الأمر بشكل شبه يومي.. وهكذا ارتضى الجميع ما آلت إليه (دِل).. طالما ارتضته هي نفسها.. والسبب الآخر الذي لم يُصرّح به أغلبهم أن زيارات (دِل) الليلية بدلوها الخفيف أخف -بالتأكيد- من زيارات (جانورن) بجرميله المرعب.

مع الوقت اندمجت (دِل) وسَكَنُها مع (جانورن) وسِرّيُها في الليالي المقمرة في روتين حياة القرية.. ودثّر المراهقون والعجائز الخرافات القديمة حول (جانورن) بخرافاتهم الجديدة حول (جانورن ودِل).. لم يكن أحدٌ يعرف -أو يتوقع- أنه كان أهون التغيرات في مسار حياة القرية الآمنة.

حين بدأ منسوب مياه النهر في الارتفاع لحد غير مألوف، سرت حالة من التوجس بين المواطنين الذين اعتادوا الشعور السائد بالأمان.. على الأقل من ناحية الجبال.. وحين بدأ النهر يعلن عن ارتفاعه بشكل أخطر، بدأت معدلات الأمان تنهار كثيرًا!

لم يعرف أهل القرية ماذا يفعلون؟ أين يذهبون؟ لعقود لم يعرفوا وطنًا غير هذا السهل.. حتى أنه لم يتبق أحد على قيد الحياة من المستوطنين الأوائل للسهل.. ولا يعرفون سبيلًا للرحيل عنه غير الجسر القديم على الطرف البعيد للقرية.. والذي بناه أجدادهم الرحالة للوصول إلى السهل الخصيب.

حين بدؤوا -أخيرًا- تجاوز الصدمة غير المتوقعة.. شرع أهل القرية كتفًا بكتف في نقل كافة متاعهم فأكواخهم إلى الأماكن المرتفعة بالقرية.. وحصدوا ما نضج فما شارف على النضوج من ثمر ومزروعات القرية.. وخزنوه في مخازن آمنة من الفيضان والطيور.. لكن النهر لم يرتجع وواصل ارتفاع منسوبه بضراوة حتى صار يهدد حيواتهم ذاتها!

لذلك اجتمع أهل القرية أجمعون لمناقشة الوضع والحلول الحتمية.. وانتهوا بسرعة إلى أن المنجى الوحيد هو عبر الجسر القديم في الطرف الأقصى من السهل.. غير أن أمر الجسر كانت به مشكلتان.. أولاهما المتعملق (جانورن) الذي يسكن بالقرب منه.. وثانيهما أن الجسر نفسه قد تحطم وتفتتت مفاصله منذ زمن!

كان حل المشكلة الثانية جليًا.. إعادة بناء الجسر بسرعة.. فانتقلوا للتفكير في حل المشكلة الأولى.. والذي جاءهم بشكل لم يتوقعوه مطلقًا.. كان ذلك حين وجدوا (جانورن) يقف أمامهم.. يده في يد (دِل) التي بدت قزمة جدًا بجانبه!

كانت مرتهم الأولى لرؤيته في وضح النهار.. وقد هالتهم ضخامته وشعث هيئته.. الشعث الذي قاربت عليه هيئة (دِل) التي ارتدت الأسمال كمَنْ بدا لهم زوجها.

غلب شعورهم بالذهول خوفهم.. خصوصًا و(جانورن) لم يَبدُ مخيفًا بنفس القدر في وضح النهار بقدر ما بدا غريبًا.. دقائق من صمت مطبق والجميع يتبادلون التحديق، كلٌ في انتظار بادرة من آخر.. لكن البادرة فاتتهم كلهم آتيةً من الجبل!

فقد سمع الجميع صوت الانفجار البعيد.. ثم رأوا حجارة الجبال تتساقط على أول السهل مدفوعة بطوفان المياه المتمرد.. مشهد مروع حدّقت له

أعينهم وساد الهلع.. وخال البعض أنها النهاية.. وبدأت العيون تتبادل النظرات الهلعة تحسبها الأخيرة ربما.

إلا أن النظرات جميعها توقفت -بشكل ما- عند (جانورن) و(دِل).. حيث كان يدور حوار خاص بالعيون لم يفهمه سواهما.. بعده حمل (جانورن) (دِل) كالطفلة فاحتضنها بحب.. ثم أنزلها واندفع يركض نحو مغارته.

هتفت (دِل) في الجمع أن عليهم الإسراع بالإعداد للرحيل الفوري.. وسيعمل (وادِّي) على إعادة بناء الجسر.

لم يكن هناك وقت لأي استفسار أو مراجعة.. لم يكن هناك وقت للتفكير حتى.. شرع الجميع فورًا في تنفيذ توجيهات (دِل).. بينما عاونتهم هي وعيناها معلقتان بحيث اختفى (وادِّي).. الذي لم ينادِه غيرها قبلًا باسم غير (جانورن).

وصل (جانورن) إلى موقع الجسر بعد ركض متواصل.. وعاينه ببصره محاولًا استخدام عقليته الضعيفة لحساب ما يحتاجه بالضبط.. لقد بادرهم النهر بانقضاضته القاتلة وأصبح بناء جسر حقيقي ضربًا من الاستحالة.

جال بعينيه الواسعتين في المحيطيات باحثًا.. حتى لفتت نظره الشجرة الضخمة النابتة في مكان عال من الجبل.. نظر مرة أخيرة إلى مكان الجسر ثم إلى الشجرة.. وبعدها قفز متعلقًا بنتوء بارز في الجبل شارعًا في تسلقه بعزم.

تكتلت السماء بالغيوم.. وهطلت أول قطرة مطر فوق رأس (دِل).. لتنهال السيول بعدها على السهل الأخضر، وكأن السماء تُحالف الأرض في طوفانها الضاري، فما كان من الأرض إلا أن أجزلت شكرها بمزيد من التفجر والاندفاع من الماء عبر الجبل، وبدا واضحًا أن الطوفان المُهلك في الطريق.

صرخت (دِل) في أهلها بالإسراع.. وبدأ العمل يُستكمل في بحيرة ضخمة وسعت السهل بأكمله.. فصار الماء يقارب الرُكب.. وقد دب الرعب أكثر

تابعوا على t.me/book100100

وأكثر في القلوب.. لكن الأبدان لم تتوقف عن العمل مدفوعة بالأمل وعشق الحياة.

على الجانب الآخر كان (جانورن) يحاول للمرة السابعة تجاوز ذلك البروز الصخري الحاد في الجبل.. لكنه يفشل من جديد ساقطًا من علٍ مصطدمًا بالصخر الواحل.

وفتح (جانورن) عينيه بصعوبة وسط الأمطار الغزيرة.. ينقلهما بين الشجرة الكبيرة أعلى الجبل.. والبروز الصخري العنيد.. وقد تضاعفت الصعوبة عشرات المرات مع الأمطار والطمي الزلِق.. لكنه تذكر الخطر المحدق بالسهل وسكانه.. و(دِل).. فنهض من جديد راكضًا نحو الجبل.

لابد من بناء الجسر بأي ثمن!

وصلت قافلة الرحيل بقيادة (دِل) إلى موضع الجسر.. تدفعهم المياه التي فاضت أخيرًا خارج السهل نحو الوادي السحيق.. ومع اقترابهم أكثر اتضحت من وسط الضباب ملامح جسر بدائي هنالك.. لكن (جانورن) لم يكن ظاهرًا في المكان.

مرة أخرى لم يكن هناك وقت للتفكير.. سارع الناس يتدافعون بأقصى نظام ممكن.. على الجسر نحو الجانب الآمن من الأرض.. بينما المياه تندفع إلى الوادي السحيق بهمجية.. فتكاد تجرف بعضهم معها.. لكن الساعة الطويلة مرت بعبورهم جميعًا بسلام.. وكانت الخسارة في بعض المتاع فقط.

ومن جديد بعد شهور.. عادت (دِل) لتكون بطلة الحدث.. والجميع يلتف حولها يشكرونها.. ويعتذرون منها ومن (جانورن) الذي لم تهتم بإخبارهم أن اسمه صار (وادْي) بقدر ما اهتمت بالبحث عنه في الأنحاء.. وقد أعانها الجميع رغم الإنهاك المتمكن منهم.. لكن بلا فائدة.

واصل النهر فيضانه ثلاث ليالٍ حتى كوّن شلالًا يصب في الوادي العميق.. ويندفع بعضه من فوق الجسر إلى الجانب الآخر.. لكنه لا يستمر بعيدًا ويعود هاطلًا في الوادي بدوره.. وقد خافوا ألا يتحمل الجسر البدائي ذلك.. فينهار ويُحبسون في الجانب الثاني.. لكن الجسر استطاع الاحتمال مُبقيًا لهم الأمل.

وفي صباح اليوم الرابع أعلن الفيضان احتضاره، وانحسرت المياه عن الجانب الأول من الوادي.. لتظهر لهم من جديد أرضهم.. متوجة بقوس المطر الساحر.

اندفعت (دِل) أولاهم نحو الجسر لتعبره باحثةً عن زوجها وحبيبها الطيب.. غير أنها لم تكد تبدأ العبور حتى توقفت.. وتوقف الجميع.. وطال وقوفهم.

فقد كان الجسر هو (جانورن) نفسه!

...

تطلّب الأمر أسابيع من الصبر حتى غيض الماء من السهل وأصبح صالحًا للحياة من جديد.. كان على الجميع الاستعداد لحقبة جديدة من الأمان الحذر.. المستعد دائمًا لأي خطر محتمل.. شاطبًا من ذاكرته وسجلاته أيضًا الخطر المحتمل الوحيد في الحقبة السابقة.. خطر (جانورن) البطل.. أو (وادِّي) كما لم يسمِّه أحد بعدها بغيره اسمًا.

رفضت (دِل) تعيينها حاكمةً على القرية.. بعد ما أظهرت من شجاعة وعزيمة ومثابرة في حادثة الطوفان.. وواظبتْ على الجلوس يوميًا بجانب (وادي).. الذي اكتمل تحوله إلى جسر.. أصلب من كل جسور الأرض.

وذات يوم افتقدها أهل القرية.. وتحركوا في فوج لتفَقُّدها عند الجسر.. فوجدوا شجرةً ظَلول.. تُلقي بظلالها على الجسر.. وتمتد غصونها لتحتضن جانبه في عناق خالد.

✽

تطلع (أمير) إلى الجسر والشجرة المتعانقين أمامه بابتسامة مرتعشة بدموع لم يحاول مسحها. ودّ لو أطال التمعن في روعة العناق الأعظم، لكن دقات ساعةٍ وهمية في أذنيه أدارته عنهما إلى بحث جديد.

«الآن.. ما التالية؟»

رأى المحارب النوردي إياه جالسًا يتطلع إلى صفحة النهر المارّ من فوقه الجسر. بدأ بالاقتراب متلهفًا، لولا أن سدد الآخر بلا نظر نصل رمحه باتجاهه. اضطر (أمير) للتراجع بين جزع وحنق.

- «يمكنني جعله يتكلم كما تعلم»

التفت (أمير) إلى صديقه الصغير قائلًا: «أرجوك لا تفعل»

وارتسمت ابتسامة على شفتيه، وتحرك بخطوات مرحة مكملًا:

- «سيأتي وقته، أنا واثق»

تبعه (فليش) طافيًا في الهواء، وتساءل متشوقًا:

- «إذن من التالي؟»

توقف (أمير)، وأشار إلى الشمال الغربي قائلًا:

- «ما رأيك في صديقنا هذا؟»

يمم (فليش) وجهه شطر إشارته، فرأى شابًا مستلقيًا يحفه السكون تحت صفصافة كادت أوراقها المنسدلة أن تخفيه تحتها.

تحركا بلا اتفاق وبخطوات بطيئة ناحيته، يستبديان عن بطلهما التالي.

....

لحظة الواجب

استقر الضوء الأحمر القاتل على هدفه أخيرًا، معلنًا حالة الازدواج الشهرية.

حين تزدوج مشاعر الجميع، ما بين الارتياح للنجاة شهرًا آخر، والأسى على حال المنزل المختار هذا الشهر.

سمعتُ أصوات الصراخ تملأ الأرجاء من بعيد.. وأصوات النحيب الخائف بجانبي تُدمي قلبي.. أغمضتُ عينيّ محاولًا إزادة قابليتي لاعتياد هذا الأمر.

في الصباح رددتْ الشوارع الحديثَ عن ضحية اليوم.. أضحيته بالأحرى.. (مهند سيف الدين بن ساطح). لم يحتجْ الأمر كثيرًا من الفطنة لتخمين أنه ابن أحد (سيوف الثورة)؛ تُميّزهم دائمًا أسماؤهم القتالية تلك، ويبدو أن إحدى ركائز عقيدة (سيوف الثورة) القتالية كانت إعداد جيل مستعد للقتال والتضحية في سبيل الحرية إن فشلوا هم في تحقيها. حسنًا.. هم قد فشلوا بالفعل، لكن الأكثر سخريةً أنهم نجحوا في إعداد جيل مستعد للتضحية فقط دون القتال!

لعل هذا ما حمل أبي بدوره على تسميتي (واعد).. وهو بذلك يلزمني إيفاء وعد لا أدرك ماهيته. أحسبني سمعت أمي منذ سنوات تقول إنه سمّى أخي الأكبر (عماد) ليكون (عماد) الدار من بعده، وأسمى الأصغر -أي أنا- (واعد) لأنه حين رآني لحظة مولدي رأى فيّ الوعد بالنصر.. أي نصر؟ لم أعرف أبدًا.. لكن أبي قُتِل بعدها بسنوات أثناء هزيمة (سيوف الثورة) أمام قوة المسوخ الباطشة.

وبعد تمام إجهاض الثورة، كان لابد من عقاب طويل على مجرد التفكير فيها.. وهكذا صدر قرار (الضوء الأحمر)!

في الفجر الثامن من كل شهر، يدور الضوء الأحمر القاتل على كل دور القرية، حتى يتوقف على دار واحدة عشوائيًا.. حينها على تلك الدار تقديم أضحية بشرية من سكانه ليقدم نفسه إلى المسوخ على خط الحاجز قبل

مطلع الشمس.. حسنًا، عليهم ذلك بشدة؛ لأن عقوبة التخلف عن ذلك هي إغارة الممسوخ على المنزل المختار ونسفه بكل من فيه، وربما نسف بعض المنازل المجاورة معه. كل ذلك مع لمسة رحمة في العقاب، وهي أن المنزل الواحد لن يتم اختياره مرتين.

على مدار سنوات كانت محاولاتٌ كثيرة للتحايل على الاختيار: هروب الجميع، الاختباء من قبل الاختيار، الانتقال إلى منازل سبق اختيارها، وحتى استعطاف الممسوخ أو التضرع لخدمتهم.. لكن محاولة واحدة منها لم تبؤ بالنجاح.. كان الممسوخ مصرين على الاستمرار الإجباري لسلسلة الفشل التي كانت أولى حلقاتها (سيف الثورة). وبعد سنوات من الفشل الدامي، بدا أنه لا مفر من التسليم للعقاب أو الانتحار الجماعي.. حتى أن لحظة وقوع الاختيار فالتطوع للموت صارت تسمى (لحظة الواجب)!

كباقي الأسر، تربت أسرتنا على الرعب وترقبه.. لم يكن الاختيار يقع -كما حسب البعض في البداية- على المنازل المحتوية على رجال وشباب، لكسر أي شوكة متوقعة لثورة جديدة؛ بل كان عشوائيًا تمامًا، وكان هذا أكثر رعبًا، وخطرًا، وفتكًا!

كلما حانت ساعة الاختيار تصرخ أمي التعيدة تنادينا جميعًا، لنلتف حولها فتحتضنا إلى أن ينتهي الأمر بسلام.. ولشهور وسنوات انتهى الأمر بسلام، لكننا لم نستطع اعتياد النجاة أبدًا!

الطبيعة البشرية تعتاد النجاة المتكررة، لكن كيف لأمثالنا اعتيادها وقد فقدنا الكثير من معارفنا وأعزائنا على طول الطريق!؟ رجال ونساء وعجائز وأطفال، كل دار حسب أولوياتها.

رغم ذلك يبدو أن طبيعتنا لها اليد العليا رغم كل شيء؛ فيوم أن تسللت حيود الضوء الأحمر من فتحات نافذتنا، وسمعنا العويل الصارخ من الدار

تابعوا كتب على t.me/book100100

المجاورة، لم أستطع التصديق أنني قد أفقد صديقي المقرب هكذا فجأة!!

كان (بشير) الأخ الأكبر على ثلاث صغيرات ورضيع.. لا أب، وأم عاملة.. لا بديل له!

راقبت من فتحة النافذة الضيقة باب منزلهم المرتج بالعويل من داخله لساعة كاملة أو يزيد، حتى رأيته يفتح بابهم مغادرًا بخطوات جسد مرتعش، يحاول التماسك أو التظاهر به فيفشل في كليهما بعنف.

كان أكبر مني بأربع سنوات، لكنه كان صديقي الأكثر قربًا.. كان شابًا رائعًا، وواعدًا أكثر مني.

اندفعت أخواته الصغيرات تحت أقدامه فتعلقن بساقيه في محاولة بائسة أخيرة لمنعه من الذهاب. كنت أعلم كما يعلم أنه لا مفر، وأن محاولاتهن الكسيرة عبثية إلى حد قاس؛ لكني لم أستطع إلا أن أندفع نحو باب الدار لأشارك أخواته المحاولة.. كان ذلك حين نالني ذراع (عماد) فسحبني يلقيني تحت قدميه، ثم ينقض عليّ فيكبلني بقوة مانعًا إياي من الحراك.

ـ «أين تخال نفسك ذاهبًا!؟ هه؟ أيها الأحمق!»

جعلتُ أصرخ:

ـ «إنه صديقي!! إنه صديقي (بشير)!! دعني أذهب!! دعني أذهب!!»

يطلق ضحكة عصبية ساخرة ويهتف فيّ:

ـ «تذهب لأي شيء!؟ لتلقي نفسك تحت قدميه باكيًا كالفتيات!!؟ أيها القذر! اسكن مكانك وإلا ألحقتك به!»

عضضت على شفتي في عجز كاره حتى أدميتها.. كانت إحدى لحظات استعراض (عماد) رجولته؛ كونه لا يظهرها إلا استعراضًا وتسلطًا!

اثنتا عشرة سنة فصلتني عن (عماد).. اثنتا عشرة سنة وألف مليون ميل.

أكرهك يا (عماد)! وأكره (لحظة الواجب)! وأكره المسوخ! وأكره الكون كله!

في القصص ذات الحبكة الدرامية، غالبًا ما تكون لحظة موت الصديق هي نقطة التحول الفارقة في حياة البطل.. لكنها في قصتي لم تكن كذلك؛ فقد استغرقتُ بعدها في نوبة طويلة من الخمول البائس، ولم يأتِ تحولي إلا تدريجيًا.

فمع الوقت أصبح (عماد) أكثر عصبية.. يعود كل ليلة من عمله ثملًا فيوزع صراخه وسبابه على الجميع بعدل وإنصاف.. يعايرنا طوال الوقت بتوليه مصاريف ومسؤوليات الأسرة، وأننا لولاه لضعنا لكننا أقذار لا نقدر ذلك.. ثم كلما طرأت مشكلة تجاهلها حتى تقع على رؤوسنا نحن!

أضنى الهم أمي فوق آلام عظامها، فصارت حركتها في انقلال تدريجي حتى كادت تذوي في شلل كامل.

أختي الكبيرة نفرت رعبًا من الزواج؛ حتى لا يتكرر فقدانها بتكوين أسرة جديدة.. ثم بدأت تورث الصغيرة رعبها، حتى باتت أسرتنا إلى زوال في الأخير. كل ذلك عزز هرمونات الرجولة داخلي، وتحت الضغط المتواصل ازداد شعوري بالمسؤولية تجاه أسرتي.

كانت صدمة غريبة أن يعترض (عماد) -وبعنف!- على رغبتي في العمل والمساهمة في مصاريف الدار، كوني بلغت مبلغ الرجال ووجب عليّ ذلك قبل أي اعتبار آخر. لم يوضح أي أسباب، وواجه حقي في الفهم بالوعيد بالويلات إن خالفتُ أمره. وبدا وكأن حب التسلط قد تملكه إلى حد الهوس.. هو لن يسمح إلا أن يظل مصدر الدخل الوحيد لأسرتنا!

كنتُ في ذلك الوقت قد تعلمت العناد، ولم يكن من الصعب العمل من وراء ظهر أخ يتغيب عن الدار طوال اليوم.. وهكذا بدأت حقبة جديدة في حياتي.

عزز العمل من إحساسي بالمسؤولية، وبدأتُ أشكّل وعيًا جديدًا أشعرني بمدى ضآلة عقلي في السابق.

رؤيتي للضعف والانكسار والاستسلام للزوال يتمكنون من أسرتي وينهشون في أرواح وأبدان أمي وأختيّ، والسنون تمر وتزداد احتمالية وقوع الاختيار الأحمر علينا شهرًا بعد شهر، (عماد) يزداد شحًا ويزداد عنفًا ويزداد هروبًا من كل مسؤوليات الأسرة.. كل هذا جعل المراهق يمضي في درب الرجولة بلا تحسس.. وأقسمت بشاربي الوليد أنني لن أخيّب تطلّع أبي فيّ كما فعل (عماد).... هذه الأسرة ليس لها سواي!

تفانيتُ في العمل حد الطاقة.. أعطي القليل لأختيّ واحتياجات الدار، وأدّخر الباقي في صندوقي الصغير، مع رسالة قصيرة.

رسالة لن تُفتح إلا بعد ذهابي إلى خط الحاجز.. حينما تحين لحظة الواجب الحقيرة.

مرت الأيام والشهور واعتدتُ على انحدار الأوضاع أكثر.

فقدت أكثر وأكثر من معارفي، وصرت أقل تأثرًا بذلك يومًا بعد يوم.

رغم ذلك حرصت ألا أتغيّر على أسرتي إلا زيادةً في الحنان والحب.. مع ابتعاد (عماد) أكثر وانخراطه في عوالم الضياع حتى لصار أقرب إلى ضيف زائر على دارنا. أتفانى على تسمين صندوقي الصغير بمزيد من الادّخار.. أريد أن أترك لهن ما يكفي لعشر سنوات.. عشرين سنة.. أربعين سنة! كنتُ مصرًا

على الإيفاء بعهدي كاملًا مهما اشتد عليّ الأمر.

تغيرتُ كثيرًا كثيرًا في سنوات قليلة، حتى صرتُ شابًا بروح كهل.

وعلى أعتاب العقد الثالث من عمري كان يومٌ كنفس اليوم من كل شهر.

الفجر الثامن يعلن عن نفسه وقد انتهيتُ من عد حصيلة ادخاري ككل شهر.. (عماد) متغيب ككل شهر.. وككل شهر أيضًا ينطلق الضوء الأحمر في دورة مجنونة على كل دور المدينة.

تنادي أمي بصوتها الضعيف الملتاع علينا، فنهب ثلاثتنا للارتماء في حضنها طمأنةً منا لها أكثر منها لنا.

الكثير والكثير من الدورات العشوائية.. ثم يستقر الضوء القاتل في الأخير على دارنا!

من جديد تعلن الطبيعة البشرية عن نفسها، فتُفجّر صدمة عظيمة على وجوهنا.

نظرات هي الموت ذاته نتبادلها، ثم أنتزع أنا جسدي من حضن أمي مبقيًا على روحي بين ذراعيها.. لا مجال الآن إلا للحسم!

وكتاريخ كريه التكرار، ارتمت أختاي تتعلقان بي ترفضان ما رأتاه في عيني، تتنازعان لإبداء تطوع مدعوم بألف داعٍ مرتجل، لكني لم أكن لأترك أدنى مساحة لذلك، وكان على صغيرهما الحنون أن يكون شديد الحسم اليوم.

أجلستُهما جبرًا ألقنهن وصاياي الأخيرة.. ألف وصية تقافزت إلى رأسي، معظمها مكررة دون إدراك.. وأخبرهن أخيرًا عن صندوقي الصغير ورسالتي الأخيرة.. سيكفيكن لعشر سنوات أو يزيد قليلًا.. آسف! ليتني قضيتُ وقتًا أكثر في العمل ووقتًا أقل في الاهتمام؛ فكان ذلك ليزيد الحصيلة ويخفف من صعوبة هذه اللحظات أيضًا.

لحظات تخبرك كم أن الوداع الاختياري أصعب بمرات من الإجباري، لكنك تتشبث بكونك اخترت القرار الصواب؛ لتستطيع الاستمرار فيه.

عناق وعناق، ونحيب ونحيب، ثم أهرول أخيرًا نحو باب الدار، أفتحه قافزًا للخارج ثم أسارع بإيصاده من خلفي. وهنا لا أملك إلا أن أرتمي بظهري عليه باكيًا بعنف، والضوء الأحمر يغشيني فأرى نفسي في محل الموت.

هل كنتُ حقًا (واعدًا) كما رأيتَ فيّ يا أبي؟؟ هل اتخذتُ الدرب الصواب؟؟ هل لبيتُ نداء الواجب، أم انجرفت في لحظة الواجب؟؟

أظلمت الدنيا عليّ تجاري إظلام خواطري، و...

أظلمت!!؟

رفعت وجهي محدقًا في حجارة الدار وفي السماء.

اختفى الضوء الأحمر!!

ما معنى هذا!!؟؟

هل تأخرتُ عنهم فهم الآن في الطريق لإبادتنا!؟؟

الشمس لم تشارف مطلعها بعد، وأيضًا الضوء لا يختفي أبدًا إلا بعد تسديد الضريبة!!

سارعتُ أفتح قفل الباب بأصابع مرتعشة كقلبي.. وحين انفتح رأيتُ أختيّ جاثيتين على عتبة غرفتي، بيديهما رسالتي المبللة بدموعهما وصندوقي الصغير ملقى إلى جوارهما، وجهاهما الغارقان في الدموع يبادلاني ملامح الصدمة.

لحظات من الصمت الغارق في الذهول، ثم ظهرت أمي على عتبة غرفتها!

تستند على الباب متحركةً بصعوبة، تحضن بيدها الأخرى صندوقَ ادخار كبيرًا!

صندوقًا يكفي لأربعين سنة!

وعلى رأس الصندوق كانت رسالة قصيرة بخط يد (عماد).

رسالة لا تُفتح إلا بعد ذهابه إلى خط الحاجز.. حينما تحين لحظة الواجب الحقيرة!

تابعوا على t.me/book100100

حدّق (أمير) و(فليش) بذهول وصدمة، في جسد (عماد) الراقد وسط العشب، وقال (فليش) بنجمتين متسعتين:

ـ «أنا لم أتوقف عن سبه منذ لحظة ظهوره في القصة!!»

أمير مرتبك المشاعر مبلل الخدين: «وأنا أيضًا!»

ـ «لكن لماذا كان يفعل ذلك!؟ يدمن الخمر ويتوحش على إخوته و.... ويمنع أخاه الأصغر من العمل و...!» هتف (فليش) حانقًا على ارتباك الصورة في رأسه.

أجاب (أمير) دون أن يبعد عينيه عن (عماد):

ـ «وما أدرانا يا (فليش)!؟ ربما أراد من قسوته على إخوته إكسابهم الصلابة.. قالها (واعد) نفسه: (ليتني قضيتُ وقتًا أكثر في العمل ووقتًا أقل في الاهتمام؛ فكان ذلك ليزيد الحصيلة ويخفف من صعوبة هذه اللحظات أيضًا).. ربما كان هذا ما أدركه (عماد) أبكر بكثير من أخيه وتبناه، فتعمد زرع الكراهية فيهم تجاهه حتى إذا ذهب لأداء لحظة الواجب كانت صدمتهم أقل»

وتابع والاحتمالات تنهال كالمطر على مخيلته:

ـ «ربما بالغ في رفضه لعمل (واعد) ووعيده له، ليدفعه للعمل بجد أكبر وتحمل المسؤولية لتوطينه على رعاية الأسرة من بعده»

نمط استرساله يتسارع ليجاري الاحتمالات:

ـ «ربما لم يكن مدمنًا فاسدًا أبدًا! حجم مدخراته لأسرته يشي بعمل بلا راحة

لسنوات طويلة. ربما كان يقصد ترك رائحة الخمر على شفتيه ضمن خطته لتكريه إخوته فيه.. أو ربما كان يشرب الخمر أحيانًا»

أنفاسه تلهث: «ربما حين انقض على (واعد) لتكبيله ومنعه من الخروج كانت لحظة خوف جارف على أخيه الأصغر لم يستطع فيها إلباس مشاعره الثوب الصحيح.. أو ربما هو قد قصد ذلك أيضًا.. وربما فيه خصلة التسلط فعلا ويحاول الهروب منها.. وربما وربما وربما.... النهاية الصادمة تقودنا لجنون الاحتمالات!!»

ظل (فليش) على ذهوله لثوان، ثم قال نصف شارد:

ـ «إذن فطوال القصة كان (واعد) على خطأ!!»

اندفع (أمير) يستنكر: «لا!!»

وزفر زفرتين طويلتين يهدئ أنفاسه، ثم ابتسم وقال دون أن يمسح دموعه:

ـ «لعل (عماد) كان منير القلب مظلم القالب.... لكن (واعد) كان منيراً كفاية ليُحوّل رؤيته الظاهرية لـ(عماد) لتوجه إيجابي في حياته»

«(عماد) رغم كل شيء كان بطلًا شجاعًا متفانيًا في حبه لأسرته وزوده عنها.. ولذلك هو هنا اليوم»

«أما (واعد) فلن نراه هنا؛ لأن مهمته لم تكن تضحيته من أجل أسرته، تلك كانت مهمة (عماد).. (واعد) مهمته تحقيق ما فشل (والده) في تحقيقه.. مهمته تحقيق (لحظة الواجب) الحقيقية.. مهمته كسر اللعنة وإطفاء الضوء الأحمر القاتل للأبد.... أثق اللحظة أن أباه كان بعيد النظر إلى حد عظيم.. وأراهنك يا (فليش) أننا سنسمع قصة (واعد) البطل الذي أطفأ الضوء الأحمر للأبد قريبًا»

تبادلا ابتسامة مشبعة بالاعتزاز، ثم قال (فليش): «ألا نوقظه لنحييه؟»

التفت (أمير) إلى (عماد) الساكن في نومه تحت الشجرة، ثم قال مُبقيًا على ابتسامته:

ـ «فندعه الآن.. (عماد) البطل يحتاج إلى استراحة محارب كافية»

ساد الصمت الجميل لثوان، قبل أن يرج الأجواء يكاد يطيح بهما صوت (نور) الجهوري ينادي:

ـ «(أمييييييير)! (فلييييييش)!»

أفاقا من فزعهما بصعوبة، ومسح (أمير) دموعه قافزًا فوق سحابته الصغيرة، منطلقًا و(فليش) ناحية الرفقة، حيث وجدا الجميع جالسين في ترقب، يتوسطهم (أندي) الواقف بثبات مرتبك.

سألهم (أمير) بشغف:

ـ «ماذا هناك!؟؟»

أجاب (أندي) بسرعة:

ـ «أريد أن أحكي قصة!»

....

همسات

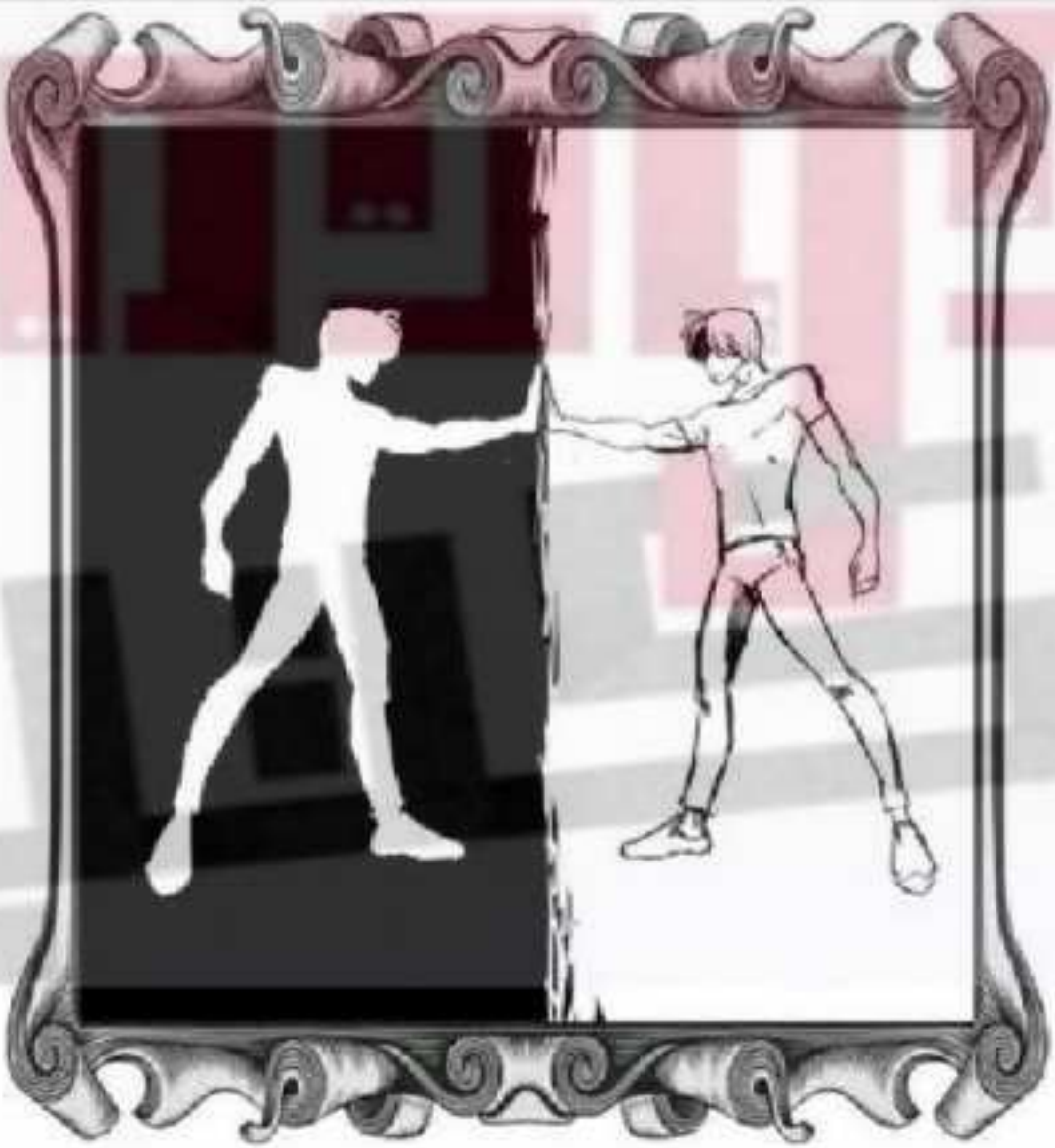

أنا منك..

أسكن داخلك..

أو أنني أسكنك..

لا أعرف ماهيتي..

غير أني وُلِدتُ معك..

عرفتُ العالمَ من خلال عينيك..

وسمعت كل أصواته عبر حركات شفتيك..

ألامس مشاعرك.. أقرأ أفكارك.. وأسمع صرخاتك التي لم تُطلقها..

سنينٌ قد عشتها في الصمت.. أراقب وأرقب..

فهلّا تسمعني أنت الآن؟؟

انتهى من كتابة الخاطرة، فعاد يقرأها كأنه يستكشفها! وغرق شاردًا فيها لدقائق كثيرة؛ حتى أنه لم يسمعها إلا في ندائها الثالث باسمه، ومباشرةً قبل أن يغلبها الإحراج فترحل.

رفع وجهه إليها وقال بحرج:

- «مرحبًا (نبيلة).... كيف حالك؟»

أجابت بارتباك:

- «بخير»

وسكتت عن الإفصاح، فانفردت للحرج المتبادل السيادة بينهما، قبل أن يبادر هو سائلًا:

ـ «خيرًا يا (نبيلة)؟»

تلعثمت لثوان وكأنها لا تعرف ما نادت لأجله، وزادت عثرتها حين رأت (سمر) آتية نحوهما، لكنها أخيرًا قالت بسرعة:

ـ «كنت أريد أن أعرف موعد التقديم لمسابقة القصة القصيرة!»

أجابها محاولًا قراءة عينيها:

ـ «لم يُحدَّد بعد»

ـ «حسنًا.. شكرًا»

قالتها بسرعة، وأسرعت تولي الأدبار قبل وصول (سمر)، التي ما إن فعلت حتى ضحك (عبد الرحمن) وقد فهم ما حدث، فنظرت له هي بوجه محمرّ وقالت:

ـ «علام تضحك يا (قالنتينو)؟»

ضحك أكثر وقال:

ـ «يووووه! ألن ننتهي من هذا الأمر يا (سمر)!؟»

قالت تقلده هازّة يديها بهزل:

ـ «ألن تنتهي الآنسة (نبيلة) من رمي نفسها عليك!؟»

زاده هزلها المغتاظ ضحكًا، وأشار لها لتجلس قائلًا:

ـ «دعك من معجباتي غريبات الأطوار واجلسي.. أريد أن أحكي لكِ شيئًا»

ـ «لا أريد سماع شيء!»

ـ «حسنًا.. سأضطر لحكيه لـ(نبيلة) إذن!»

نظرت في عينيه بغضب، وتحركت تنصرف، حين أوقفها ممسكًا بيدها وقال مبتسمًا بحب:

ـ «تعالي هنا.. قلتُ لكِ من قبل: لا يصح للملكة أن تغار من الرعية»

قالت بضيق أنثوي:

ـ «وإذا بصبص الرعية لملكها؟؟»

ضحك لكلماتها وقال:

ـ «تعرفين أنه ليس في عينيّ سواكِ»

بخفوت أجابت: «أعرف»

يُجلسها بجواره:

ـ «وأنا أقدّر غيرتك الأثيرة طالما حافظتْ على إطار الحب.... تعالي.. أريد أن أحكي لكِ أمرًا فعلًا»

جلست بجانبه باستكانة تنتظر ما سيقول، فناولها دفتره وقال:

ـ «اقرئي»

تناولت الدفتر وبدأت تقرأ ما كتب بتركيز، بينما قرأه هو معها في سره بسرعة متلهفة عدة مرات، حتى بدا عليها الانتهاء، فسارع يسألها:

ـ «ما رأيك؟؟»

عادت تجول بعينيها بين سطور الخاطرة القصيرة، وقالت دون أن ترفع عينيها: «جيدة.. في الواقع أراها جيدة جدًا.. فيها سحر خاص»

والتفتت له: «أهي لمسابقة الاتحاد؟»

أجاب مفكرًا: «لا.. في الواقع لم أفكر في الكتابة للمسابقة حتى.. كنتُ جالسًا وشعرتُ برغبة عجيبة في الكتابة فجأة.. لم يتوقف القلم لحظة للتفكير حتى أنهاها.. وحين عدت أقرأها أحسست بأنني أستكشفها، وكأنني لستُ من كتبها!»

قالت بظرف:

ـ «يا سلاااام! ما هذا الكلام الكبير يا (طه)!؟»

ـ «(طه)!!؟ أها! (طه حسين) طبعًا.. حسنًا حسنًا اسخري كما شئتِ أيتها الشريرة»

ضحكت لطريقته، وقالت:

ـ «أنا أراها خاطرة مميزة جدًا.. أكملها وقدمها للمسابقة»

ـ «لا أستطيع»

ـ «لا تستطيع ماذا!؟»

ـ «لا أستطيع إكمالها.. في الواقع لا أظنني أستطيع إضافة حرف واحد»

تطلعت إلى الخاطرة مفكرة، ثم قالت:

ـ «لكنها هكذا ناقصة! ليست قصة قصيرة جدًا حتى.. هي مجرد حكي حالة غريبة»

شاردًا: «نعم، أظنها كذلك!»

...

«ماذا تفعلون!!؟»

هتف بها (ملاك) وهو يقتحم المكتب، فالتفت له (فوزي) وزوجته بدهشة، بينما تجاوز (محمود) صدمته سريعًا، وتراجع في مقعده قائلًا ببرود:

ـ «(د. ملاك)! كنا في سيرتك للتو!»

تجاهله (ملاك) تمامًا، ونظر إلى (فوزي) وزوجته الناحبة مواصلًا هتافه المحتد:

ـ «مربوطٌ من أطرافه الأربعة بالسرير!!؟ هل تدركون ما تفعلون!؟ أنتم تحوّلون ابنكم من شاب يعاني مشاكل نفسية إلى مريض نفسي عتيد!»

لم يمهله (محمود) الفرصة للتحاور، فانتصب مكانه مهاجمًا:

ـ «أخفض صوتك يا دكتور! واحترم المكان الذي تقف فيه الآن!»

وأتبع يشير إلى الأم الباكية مضيفًا توابل خاصة:

ـ «وارحم العائلة المسكينة من خرافاتك الخيالية التي كبدتهم فوق ما يطيقون على لاشيء!»

مزيد من الفلفل الحارق:

ـ «يبدو أن عنادك لمداراة فشلك قد أصاب عقلك بالمـ...»

قاطعه (ملاك) ممسكًا بتلابيبه، وهتف:

ـ «أيها الخبيث القذر!!»

...

«أنا... أنا... هـ...»

فتح (عبد الرحمن) عينيه فجأة، شاعرًا بحضور غريب يجتاحه.

أنفاسه تعلو بصدره وتهبط، يحاول استجماع مداركه لتفسير ما حدث.

لا يتذكر بماذا كان يحلم.. لكنه يشعر كالخارج من كابوس للتو.

امتدت يده إلى يساره، فتناول هاتفه المحمول وسماعاته الصغيرة، أوصلهما ووضع السماعات في أذنيه، وبعد ثوان قليلة كان صوت القارئ العذب يجول من أذنيه إلى رأسه فيملأ كيانه بالسكينة والراحة النفسية. جعله هذا يغمض عينيه مستسلمًا للنوم من جديد، دون أي كوابيس هذه المرة.

تابعوا على t.me/book100100

«(عبد الرحمن)..»

رن صوتها في أذنيه، فرفع رأسه بسرعة، ليرى وجهها الذابل بالحزن يبادله نظرات الاشتياق البائنة، لكن كساء الحزن على وجهه كان أثقل وأعمق همًّا، حتى أنه أشاح بوجهه عنها دون كلام، فاندفعت نحوه قائلة:

ـ «(عبد الرحمن).. اسمعني! أنا.... أنا لم أقصد أن أصل بك إلى هذا أبدًا.. لكني فقط كنتُ خائفة عليك.. أنت تعلم.. كم أحبك»

ـ «تحبينني لكنكِ لا تثقين في قواي العقلية!»

غمغم بها ومذاق الدموع في فمه، فترقرقت العبرات في عينيها، لكنها عجزت عن الكلام. بحثت عن اعتذار كاف لما فعلت.. لكن بحثها طال!

...

«لماذا لا ترد على الهاتف؟!»

التفت لها مشدوهًا، ليرى الحنق موزعًا في ملامحها، ووضع يده بحركة تلقائية على جيبه يتحسس هاتفه، ثم قال بصدق:

ـ «لم أسمعه»

أرادت استكمال وصلة استنكارها، لكن النظرة الزائغة في عينيه نقلتها إلى حال القلق، وسألته:

ـ «ما بك؟؟»

ـ «تذكرين الخاطرة التي عرضتها عليكِ وقلت لك أنني أشعر أنني لست من كتبها»

تتذكر: «نعم»

أشار إلى رأسه وقال:

ـ «أشعر بشيء غريب في عقلي.. طوال الوقت أسمع همهمات غريبة غير مفهومة.. حتى وأنا نائم أسمعها، لدرجة أنها توقظني أحيانًا!»

تملكها القلق فورًا لدى سماعها كلماته التي خرجت تلقائية صادقة، فجلست بجانبه وقالت:

ـ «هل تتعرض لأي ضغوط نفسية مؤخرًا؟؟ صارحني يا حبيبي»

للحظة بدا وكأنه موشك على الانفجار بها، لكنه عاد يحدق في الأرض وقال:

ـ «لا يا (سمر).. لا أتعرض لأي ضغوط نفسية مؤخرًا.. ولستُ مجنونًا أيضًا»

تندفع مصححة: «لم أقصد ذلك»

ـ «أعرف»

ترسم ابتسامة صعبة على شفتيها سائلة بلهجة ودود:

ـ «ماذا تقول الهمهمات؟؟»

دون أن يرفع ناظريه عن الأرض أجاب:

ـ «لا أفهم منها شيئًا.. كأنها همهمات طفل رضيع.. لا يبكي، لكنه لا يتوقف عن الهمهمة»

ومسح وجهه بكفه في عصبية، فتابع:

ـ «أنا موقن من أنني لست مجنونًا إطلاقًا.. لكني لا أضمن ألا أجن إن لم تتوقف تلك الهمهمات قريبًا»

تضاعف قلقها عليه، وتكرر ابتلاعها ريقها من التوتر، ثم ربتت على كتفه وقالت:

ـ «(عبد الرحمن).. اسمعني يا حبيبي.. أنا آخر واحدة في العالم قد تظن بك الجنون.. لكن اسمعني.. لِمَ لا تذهب إلى طبيب نفسي متفهم وتحكي له، لربما استطاع مساعدتك؟»

تحفزت عضلاته لدى سماعه الكلمة، فأسرعت هي تستدرك:

ـ «الأطباء النفسيون تمر عليهم عشرات الحالات المشابهة، فيعرفون كل الأسباب المؤدية لها. أنا أعرف رأيك فيهم مسبقًا.. لكني سأذهب معك إلى طبيب شاب صدقني هو متفهم إلى أبعد الحدود، وأنا نفسي ذهبت إليه عندما كنت أعاني من فوبيا الأماكن الضيقة منذ سنوات»

انفكّ تحفز عضلاته قليلًا، فأسرعت هي تحتوي يده بكفيها وقالت:

ـ «أرجوك يا حبيبي.. فلنذهب فقط.. من أجلنا»

لحظات من الصمت طالت عليها، ثم زفر أخيرًا وقال:

ـ «حسنًا.. سأذهب..»

وبشدة أكمل:

ـ «لكن وحدي!»

صدمتها شدة القول والكلمة، ثم أنه ضحك وقال مازحًا يقلدها:

ـ «فأنا أغاااار!»

لكزته في كتفه بقوة وقالت بدموع ضاحكة:

ـ «ذكّرني أن أقتلك بعد العلاج!»

...

ارتجت جوانب الغرفة لصرخاته العاتية:

ـ «أين أنننننننت!!!؟ أين أننننننت!!؟»

اندفع الممرضون والأطباء الشباب لغرفته يحاولون احتواء ثورته، بينما واصل هو صراخه:

ـ «لا تستسلم لهم!! لا تستلهم لخرافاتهم!! أنا لم أستسلم فكيف تستسلم أنت!!؟ أين أنننننننت؟؟ هل تسمعني؟؟ أنا لن أتخل عنك أبدًا.. ومهما فعلوا لن أتخلى عنك.. مهـ ـمـ ـمـ مـ مـ...»

انحسرت صرخاته تدريجيًا حتى تلاشت، مع سريان مفعول المخدر في أوردته، ليسقط في نوم عميق بلا أحلام أو زوار.

...

رحّب به الطبيب النفسي الشاب، وأجلسه على مقعد وثير جلس هو على مثله أمامه. وقبل أن ينطق الطبيب بحرف آخر اندفع (عبد الرحمن) يقول:

ـ «من فضلك يا دكتور.. مع وافر احترامي.. أصارحك القول أنني لا أحب الأطباء النفسيين، ولم آتِ إليك سوى بعد ترشيح من شخص عزيز يؤكد مدى تفهمك.. لذا فإني أرجو منك الموافقة على اتفاق نبرمه بيننا»

ابتسم الطبيب الشاب وقال:

ـ «وما هو؟»

أجاب (عبد الرحمن): «ألّا تميل بنا إلى خانة المرض النفسي والهلاوس أبدًا.. وإلا فلن أستطيع أن أواصل الطريق معك.. وأرجو أن تتفهمني في هذا ولا تعتبره تعديًا أو وقاحة مني»

اتسعت ابتسامة الطبيب، وقال بعد صمت قصير:

ـ «حسنًا.. هذه بداية جيدة من الصراحة يا (عبد الرحمن).. وأنا أتفهمك جدًا.. وموافق جدًا أيضًا.. لكن ألا تمنحني إضافةً بسيطة على الاتفاق؟»

ابتسم (عبد الرحمن) رغمًا عنه، وسأل:

ـ «وما هي؟؟»

أجاب الطبيب بعملية ودودة:

ـ «أن نكون حياديين؛ لا أميل بك أنا إلى جانب المرض النفسي والهلاوس، ولا تعاند أنت على أي احتمال ولو ضئيل لشبهة نفسية في الموضوع.. هكذا نضمن الوصول إلى أفضل نتيجة دون حيود»

وأشار بكفيه علامة الموازنة مُتبعًا: «ما رأيك؟؟»

فكّر (عبد الرحمن) لثانيتين ثم هز كتفيه وقال باسمًا:

ـ «حسنًا.. عادلٌ كفاية»

ابتسم الطبيب أكثر وقال:

ـ «حسنًا.. أول شيء: أريد أن نتعامل كأصدقاء لا كطبيب ومريض.. موافق؟»

رد (عبد الرحمن):

ـ «مجرد قولك لهذا يعني أنك تتعامل كطبيب نفسي فعلي على فكرة!»

هز الطبيب كتفيه وقال بمرح:

ـ «هذه (كليشيهات) طبية محفوظة.. عليك أن تعذرني»

ضحك (عبد الرحمن) وقال:

ـ «حسنًا.. سأحاول.. يا (ملاك)»

ضحك (ملاك) بدوره وقال:

- «الآن بدأت تفهمني.... هيا.. أسمعني ما لديك»

ولم يجد (عبد الرحمن) أدنى صعوبة في الحكي.

...

«ما لاحظته أكثر من غيره أنك كثير التفكير حدّ الإغراق في الشرود.. لذا دعنا نبدأ بخدعة صغيرة. توقف عن التفكير وتجاهل الموضوع تمامًا! وحين أطلب منك تجاهل الموضوع تمامًا فأنا أعني تجاهله تمامًا، وليس التظاهر أو إيهام نفسك بذلك. قد لاحظتُ أيضًا أنك محب للتحديات.. فلنر إذن مدى قدرتك على تنفيذ هذه المهمة!»

استرجع كلمات (ملاك) وهو يأوي لسريره في تلك الليلة محاولًا الثبات على تجاهله لتلك المهمات التي لم تكلّ من المحاولة.

ضغطه المتواصل على أعصابه أنهك ذهنه، وجعله يذوب في ملكة الهجوع سريعًا.... قبل أن يستيقظ فجأة بقلب يوشك على التوقف!

يلهث مشجعًا قلبه على مواصلة الخفقان، ويخاطب نفسه:

- «لا! هذا ليس طبيعيًا! هذا مختلف جدًا! هذا مختلف جدًا!»

وظل يرتجف، يتجافى والنوم بعضهما بعضًا، حتى طلع الصباح، وهو مازال على ارتجافه.

كان قد أرسل رسالة إلى (سمر) فور استيقاظه فقط لتطمئنه كلماتها حين الرد، وقد وصل الرد في الصباح محملًا بالقلق، فأجاب بأنه سيحكي لها حين اللقيا في الكلية.

كانت التوأمان قد استيقظتا للاستعداد للمدرسة، وبدأتا شجارهما اليومي على الأدوات المدرسية، مع صراخ أمه المسكينة طالبةً الهدوء. كل هذا زاد

من ضغط أعصابه وجعله يغادر منزله يتطوح في مشيته وفي تفكيره، حتى بلغ جامعته لا يدري كيف وصل. وكانت (سمر) هناك عند بوابة الجامعة تنتظره.

....

ـ «ماذا بك يا حبيبي؟؟»

ـ «لن تصدقيني»

ـ «(عبد الرحمن)!!»

ـ «فحتى أنا لا أستطيع تصديق نفسي!»

ـ «.....»

ثم أنها ربتت على كتفه تواسيه وتدعمه، وقالت:

ـ «سأصدقك مهما قلت يا حبيبي.. احكِ لي.. ماذا حدث»

ـ «الهمهمات..»

ـ «ما بها؟؟»

ـ «لم تعد كذلك!»

...

❋❋❋

ضرب بقبضته على المكتب واقفًا، وهتف يرتجف ارتجافة عصبية عنيفة:

ـ «دكتور (ملاك)! لا أراك تلتزم باتفاقنا الآن! وهذا آخر ما أحتاجه في هذه اللحظة!»

سارع (ملاك) يقف ويمسك بكتفيه يحاول تهدئته، وقال:

ـ «اهدأ يا (عبده).. بل أنت من تخالف اتفاقنا الآن؛ بمحاولة دفعك لي دفعًا لتبني التفسير الخيالي»

يستكمل الهتاف:

ـ «أقول لك هذا الصوت لا يمت لي بصلة! لكنته لا تمت لي أو لأي لكنة أعرفها بصلة! يتحدث بكلمات مبعثرة الحروف لا أكاد أفهمها.. كأنني أستمع إلى طفل مازال يتعلم الكلام يناجيني!! وأنت تصر على طرح أسئلة نفسية عليّ، و...»

قاطعه (ملاك) قائلًا بحزم:

ـ «يمكننا استنفاد الاحتمالات النفسية أولًا ومن ثم البحث في الاحتمالات الخيالية»

انتزع (عبد الرحمن) نفسه من بين يديه وهتف مستنكرًا:

ـ «لن أطيق إلى استنفاد الاحتمالات اللعينة النفسية! لأنني أنا نفسي أستنفد الآن.. بالكاد كنت أقاوم الهمهمات أصلًا، والآن صار الأمر أكثر جنونًا!!»

ـ «هل صرتَ تسمعه يخاطبك أثناء نومك أو شرودك فقط، أم أثناء وعيك وتركيزك أيضًا؟؟»

الهتاف يرتفع إلى صراخ:

ـ «اللعنة! أنا أسمعه بينما تكلمني الآن!! لماذا تظنني أصرخ إذن!!؟»

واندفع يغادر المكتب، وقد فشل (ملاك) في اللحاق به، بينما لم يتوقف هو عن الركض، فالهرولة اللاهثة، حتى بلغ شقتهم القديمة، انتزع المفتاح من ميداليته فاقتحم به الباب وأغلقه من خلفه، ثم ألقى نفسه في أول ركن

قابله، وأجهش بالبكاء، حتى سقط في نوم صعب.

...

«ابس صعرني.. آنا.. آآسف... آنا...»

جلست أمه على طرف سريره تتحسس الحبال التي قيدوا أطرافه الأربعة بها إليه، وقالت دامعة:

ـ «ولدي حبيبي!»

ظل هو على تحديقه الجامد للسقف، يكتم مشاعره المتعاطفة، تدفعه لذلك ذكريات ما فعلوه به وما آل إليه.

قالت تستجديه:

ـ «يقول الأطباء أنك لم تعد تسمع تلك الأصوات.. لماذا تصر إذن على التمسك بالوهم!!؟»

مزيد من الصمت الجامد..

ـ «لماذا تصر على إحراق قلوبنا عليك يا ولدي!؟ أجبني بالله عليك!»

نطق ببطء:

ـ «هل تريدين المعرفة حقًا يا أمي؟؟»

تذهل فتندفع مؤكّدة: «طبعًا يا ولدي!»

ـ «وهل ستصدقين؟»

ـ «......!»

ـ «هذا ما توقعت.. أنتِ لن تصدقي يا أمي.. ولا أبي سيصدق.. ولا (سمر) ستصدق.. ولا أي كائن غيري وغيره سيصدق.. لكني يا أمي لم أعد أبالي بتصديق أي شخص.. فلأظل في عيون الجميع المجنون وسيظل الجميع في عينيّ المثل. وعمومًا سأخبرك الإجابة يا أمي.. فقط لأريح قلبك إن أراد الراحة فعلًا لا التمسك»

«لأني أؤمن به.. أنا أؤمن به.. وأؤمن بأنه حي وبأنه يسكن داخلي.. وأؤمن أنه لم يختفِ إلا لمحاولة إنقاذي مما أنا فيه، رغم أن السبب الحقيقي فيما صرتُ إليه هو أنتم لا هو»

واكتست لهجته بالقوة مكملًا:

ـ «لذلك فأنا لن أتخلّ عنه أبدًا.. سأظل متمسكًا به منتظرًا عودته مهما حدث، وحتى وإن بقيتُ في هذا المكان للأبد عائشًا معه وكفى! هل تسمعيني يا أمي؟؟ معه وكفى!»

...

أفاق من نومه متوجعًا من وضعية النوم الصعبة، ومسح وجهه بكفيه من التراب المتراكم بالشقة المهملة، يسترجع كل ما حدث شاعرًا بضغط عظيم يجثم على قلبه وعقله معًا.

«ليس معي.. آنا.. آآسف.... آنا....»

يضع يده على قلبه يهدئ نبضاته الصعبة، ويفكر..

يعلم يقينًا أنه أبعد ما يكون عن الإيمان بقصص التلبس والقرين وكل هذه المواد الرائجة للدجل، لكنه كذلك يؤمن تمامًا بأن ما يسمعه الآن ليس من الهلاوس أو الفصام.. ليس لشعوره بمدى صدق الأمر بقدر شعوره بمدى

تابعوا على t.me/book100100

غُربته عنه!

«آنا.. آ.. آ...»

يضع كفيه على وجهه ثم يرفعهما ماسحًا إلى رأسه بتوتر، وأخيرًا يقرر أن يبدأ مشوار الجنون لعله يفلح.

ـ «حسنًا من أنت؟؟»

«آنا.. لا.. آعرري فـ»

اتسعت عيناه في صدمة شديدة؛ لم يتوقع أن يكون الرد بتلك السرعة! هذا الصوت لا يرسل إليه الرسائل فحسب؛ إنه يخاطبه! يسمعه ويحاوره!

«آنا.. آس كونو.. داخي لك»

تذكر في تلك اللحظة الخاطرة إياها، وسارع يُحفّز عقله على تذكرها، ومن ثم تلاها بصوت مسموع:

«أنا منك..

أسكن داخلك..

أو أنني أسكنك..

لا أعرف ماهيتي..

غير أني وُلدتُ معك..

عرفتُ العالم من خلال عينيك..

وسمعت كل أصواته عبر حركات شفتيك..

ألامس مشاعرك.. أقرأ أفكارك.. وأسمع صرخاتك التي لم تُطلقها..

سنينٌ قد عشتها في الصمت.. أرقب وأراقب..

فهلا تسمعني أنت الآن؟؟»

«.......»

- «هل أنت من أوحيت لي بكتابة ذلك؟؟»

«لا آعـ ري فــ... آ نا.. لـ... آ.. آ...»

صاح فجأة بعصبية:

- «طريقتك في الحديث مستفزة بشدة!! لماذا لا تتحدث بشكل طبيعي!!؟»

«آ نا.. لـ.. آعـ ري فــ... آ نا.. آ...»

صدم مؤخرة رأسه في الحائط خلفه عدة مرات محاولًا تفريغ عصبيته، وقال:

- «لن أتحمل حديثًا بهذا التقطع الآكل للأعصاب!»

ثم تذكر مع من يتحدث أصلًا، فاندفع يضحك ويهز رأسه بعصبية، حتى شعر بالدوار يغالبه، فقام وغسل رأسه وشرب علبة عصير وجدها كانت صلاحيتها بالكاد مازالت جارية، ثم آوى إلى ركنه الأول، فجلس، وبدأ يرسم بأنملته بين التراب كلمات خاطرته التي لم تكن كذلك!

استغرق في رسمها بطول أرضية الصالة حتى أنهاها كلها، وبدأ بصعوبة يتمعن في كلماتها، يستشف منها إجابات أسئلته الحائرة.

...

بلغها صوته عبر الهاتف يقول بعبارات متسابقة:

- «(سمر)، لن تصدقي ما يحدث معي! إما أنني جننت أو أنني أعاني تجربة فريدة وعجيبة جدًا! أحتاج إلى رؤيتك لأحكي لكِ كل شيء! هل يمكنكِ النزول مبكرًا ونلتقي في السابعة أمام الجامعة؟؟»

فضول الأنثى وقلق المُحبّة. سحبت ساعة الكومود إلى عينيها شبه المغمضتين

وقالت:

ـ «حسنًا، سأبدأ بالاستعداد.... هل أنت بخير؟»

بنفس العبارات المتسارعة:

ـ «نعم نعم بخير يا حبيبتي لا تقلقي.. حاولي ألا تتأخري لأني أكاد أجن من الحماس لإخبارك!»

وأغلق الخط، تاركًا إياها للذهول.

لهجته حماسية جدًا، لكن بلا جذل أو قلق!

فقط أحستها.... مجنونة جدًا!

...

حين وصلت إلى بوابة الجامعة كان يقف هناك. فور أن رآها هرول نحوها ملوّحًا. حدّقت بذهول في ملابسه المتربة غير المهندمة، ثم -لدى اقترابه أكثر- عينيه المحمرتين المتسعتين، فكان أول ما قالته حال بلوغه إياها:

ـ «أخبرني أنك بخير من فضلك؛ لأنك تبدو أبعد ما يكون عن ذلك!»

ضحك ضحكة عصبية قصيرة وقال بسرعة:

ـ «أنا بخير، لكنني أمارس نشاطًا ذهنيًا فائقًا منذ منتصف الليل في شقتنا القديمة المتربة.. المهم الآن...»

تقاطعه باستعجاب:

ـ «نشاطًا ذهنيًا فائقًا!!»

يمسك بكفها ويقول متحركًا:

ـ «نعم سأشرح لك كل شيء.. تعالي فقط لنجلس في الاستراحة لحين فتح

البوابات وسأحكي لكِ كل شيء»

تبعته غير غافلة عن ارتعاشة يده الممسكة بكفها. تبعته قابضةً على قلبها، ترجوه الاحتمال حتى يكشف ساكنه عن سره.

....

جلسا بالاستراحة المجاورة لسور الجامعة، ولم تحتج لبادرة سؤال لينطلق هو في حكي كل ما حدث من الليلة قبل الفائتة، جلسته النهارية المؤسفة مع (ملاك)، وأخيراً السهرة العجيبة مع صاحب الهمهمات حتى الصباح. كانت تستمع له بأعين متسعة؛ وَجَلًا من طريقة حكيه أكثر منه ذهولًا من عجائب ما يحكيه، وفي كلٍّ ما يُخيف!

- «كان من الجنون تحمل تلك الطريقة الرتيبة المُقطَّعة في الحديث، لكن فضولي وأثر الأمر في نفسي دفعاني دفعًا لتحملها، ومواصلة الكلام مع صاحب الهمهمات حتى الصباح! يقول أنه هو نفسه لا يعرف ماهيته! وأنه يعيش في داخلي منذ وقت طويل.. يرى من خلال عينيّ كل ما أراه، لكنه لا يسمع إلا صوتي أنا. سألته (ولماذا لم تعلن عن نفسك إلا الآن!؟) فأجاب أنه طوال تلك السنوات لم يكن يدرك أنه يملك طريقةً للتواصل معي، وحَسِبَ أنه جزء من عقلي ودوره هو المراقبة والاستماع فقط. ومنذ شهر فقط اكتشف أنه يستطيع التواصل معي! وهذا يفسر طريقته الطفولية في الحديث! كأنه مازال في طَور تعلم الكلام! الأمر جنوني يا (سمر)! أنهيتُ حديثي معه منذ ساعات لكنني لم أستطع -ولم أحاول أيضًا في الواقع- التوقف عن التفكير في الأمر. لا أستبعد أن يكون جزءًا من عقلي فعلًا.. الأمر جنوني إلى حد بعيد، أليس كذلك؟؟»

وتوقف بأنفاس لاهثة عن الحكي منتظرًا ردة فعلها، ليكتشف أنه لم يكن يراها فعلًا طوال تلك الساعة! الهلع المتجسد على ملامحها وارتعاشة كتفيها

أرجعا كل انفعالاته إلى ما خلف مشاعره المُحبّة. حاول الابتسام لها مطمئنًا وقال بما استطاعه -ولم يَكْفِ- من هدوء:

- «أنا آسف يا حبيبتي. أعلم بكل ما يجول من بخاطرك من احتمالات سوداء الآن.. أنني جننت.. أُصبتُ بالفصام. لكنني أحكي لكِ الآن لأنكِ أقرب شخص لي.. كل ما حكيته لـ...»

وامتدت يده تمسك بكفها، فسحبت ذراعها بانتفاضة عفوية. حدق في وجهها بخوف، فأجهشت بالبكاء وأمسكت بيديه قائلة:

- «أرجوك أخبرني أن هذا أي شكل من أشكال مزاحك الثقيل!»

سالت دموعه شاعرًا بذنب قاسٍ، وقال بعد لحظات من صمت:

- «للأسف لا يا (سمر).... أنا آسف جدًا؛ كنتُ مهووسًا بالتفكير في الأمر ولم أفكر حقًا كيف أحكيه لك بشكل مناسب.. أفزعتك كثيرًا.. لكني...»

قاطعته راجية:

- «أنا قلقة عليك! لا تترك نفسك لهذا الأمر.. الأمر لا يتعلق بجنون أو فصام فقط يا حبيبي.. بعض هذه الأعراض النفسية تسببها مشاكل عصبية وعضوية.. أنا أؤمن أنك أكثر إنسان عاقل على وجه الأرض، لكن أرجوك ألا تعاند! دعنا نذهب سويًا لدكتور (ملاك) وتحكي له كل شيء.. أنت أخبرتني أنه مختلف وأنك شعرت معه بالراحة جدًا.. دعنا نذهب إليه اليوم سويًا، وأعدك أنني لن أتهمك أو أتركه يتهمك بالجنون أو الفصام أو أي شيء من هذا أبدًا!»

أسلوب المسايرة في كلامها كان ليضايقه شديدًا في ظروف أخرى، لكنه الآن قلق عليها أكثر من أي شيء آخر. هل يخبرها بمبرره للتمسك بالأمر؟؟ ينظر إلى عينيها.. هذا أبعد وقت عن المناسبة أيها الأحمق!

- «حسنًا يا حبيبتي.. سأذهب للدكتور (ملاك) اليوم ولن أعاند.. لكن سأذهب

وحدي»

ـ «لماذا!!!؟»

يحاول مجابهة قلقها المتضاعف:

ـ «لأني....»

نشج بالبكاء أكثر عن غير عمد:

«لأني.... لن أســتـ...»

اندفعت إلى جواره تقبض على ذراعه محتويةً وقالت بسرعة:

ـ «حسنًا يا حبيبي حسنًا لا بأس! اذهب وحدك.. لكن عدني ألا تعاند على شيء»

ـ «أعدك يا حبيبتي»

ـ «وعِدْني أن تعود للبيت وتنال قسطًا وافرًا من الراحة الآن قبل الذهاب إلى دكتور (علاك)»

رفع وجهه إليها بابتسامة من صميم قلبه:

ـ «أعدك يا حبيبتي.. أعدك»

...

بعد الترحاب والجلوس وبعض المزاح الأسري المتبادل، عاجل (فوزي) نسيبه بموضوعه:

ـ «من الجيد أنك أتيت يا (علاء).. أريدك أن تجد حلًا لـ(عبد الرحمن)»

عدّل (علاء) من وضع نظارته الطبية ليضفي انطباع الخبير الذي يحبه على نفسه، وسأل:

ـ «ماذا به؟»

(فوزي) باستثقال متكلف:

ـ «أخبريه يا أم (عبده)»

جلست زوجته قبالة أخيها وقالت تزفر خوفها:

ـ «حالته صارت مقلقة جدًا يا (علاء).. شبه لا ينام وسرحان أغلب الوقت، ولم يعد يهتم بمظهره.. واليوم اتصلت بي زميلةٌ له في الكلية تخبرني أنه يسمع هلاوس لشخص آخر يكلمه، وأنها نصحته بالذهاب لطبيب نفسي (معرفة) وذهب إليه بالفعل، وكان من المفترض أن يذهب له منذ يومين لكنه لم يفعل، ولم يذهب لكليته منذ ذلك الوقت أيضًا، بل يمضي الوقت في شقة (المسلمية) وحده.. ابني قد جُنّ يا (علاء)!»

ترك طلعها المنفجر مع جملتها الأخيرة، وسألها بأسلوب المحنك:

ـ «زميلته أخبرتكِ كل هذا؟؟»

ـ «نعم.. اسمها (سمر)، وهو كان يتحدث عنها كثيرًا.. الواضح أنهما مرتبطان أو ما شابه.. المهم الآن.. دبّرنا يا (علاء)!»

صمت (علاء) راسمًا التفكير العميق على وجهه لثوان، ثم أشار إلى غرفة ابن أخته وسأل:

ـ «هو هنا الآن؟؟»

هزت أخته رأسها بألم نفيًا وقالت:

ـ «في شقة (المسلمية)»

أخرج (علاء) هاتفه المحمول من جيبه وقال وأنامله تجري على شاشته بسرعة:

ـ «من كلامك وكلام زميلته (سمر) أشتبه أنه فصام أو وسواس قهري، ولابد

أن ذهابه عند طبيب نفسي قليل الخبرة قد أزاد الحالة سوءًا.. لكن لا تقلقوا سأتصرف»

سألته أخته بلهفة:

ـ «ماذا ستفعل؟؟»

أجابها وهو يضع الهاتف على أذنه بثقة:

ـ «أتصل بطبيب نفسي صديقي يعرف جيدًا ما يفعله، ولديه مصحة صغيرة متخصصة في علاج هذه الحالات»

شهقت أخته فزعة:

ـ «مصحة!!؟ ابني سيذهب إلى مصحة!!؟»

وضع إصبعه على شفتيه بحزم يُلزمها السكوت، بينما قال زوجها بصوت خفيض:

ـ «يا أم (عبده).. المهم أن تتحسن حالته ويعود إلى سابق عهده»

عضت الأم على شفتها السفلى بألم، تنقل وجهها إلى أخيها، الذي بدأ مكالمته بودية عملية:

ـ «مرحبًا (د. محمود).. ما أخبارك؟ اسمع.. عندي حالة مقلقة.. نعم ابن أختي.. أشتبه في فصام أو وسواس.. سآتي به إليك في المصحة لتفحصه»

...

اقتحمت العيادة الصغيرة لاهثة من التهام درجات السلم، فرأته يغلق باب الحمام عائدًا لغرفة الكشف، رآها فتعرف عليها، وقطعت هي المسافة إليه هرولةً فقبضت على ذراعه هاتفة:

ـ «(د. ملاك)! لقد حجزوا (عبد الرحمن) في مصحة نفسية!»

أشار للسكرتيرة التي قد هبت واقفة لتجلس، ثم نظر لعيني (سمر) وسألها بجدية:

ـ «متى حدث هذا؟؟»

ـ «منذ 5 أيام.. أنا لم أعرف إلا من والدته اليوم!»

وقبل أن يرد عاجلته:

ـ «أرجوك يا (د. ملاك).. أنا أعرف (عبد الرحمن) جيدًا.. عناده وكرامته لن يتقبلا الأمر وستزداد حالته سوءًا»

حاول التهدئة من روعها، لكنها أجهشت باكية:

ـ «الذنب ذنبي يا (د. ملاك)! أنا التي أخبرت أمه بالأمر خوفًا عليه عندما توقف عن زيارتك واعتزلنا»

تنهد وقال:

ـ «أتحمل جزءًا من الذنب معكِ أنا أيضًا.. لكن دعينا نفكر في كيفية إصلاح الأمر الآن»

مسحت دموعها وسألته مستنجدة: «ماذا سنفعل؟؟»

جال بعينيه في أركان العيادة كعادته العصبية عندما يفكر، ثم عاد إليها يسألها:

ـ «اسمعي.. سأسلك سؤالًا قد يبدو غريبًا، لكن إجابته قد تفيدنا ولو بالاحتمال»

...

دلفت السكرتيرة الحسناء بابتسامة واثقة كخطواتها إلى مكتب (محمود)، الذي بادلها الابتسام سائلًا:

ـ «كيف يبدو رفيقهم؟»

قالت بكياسة: «يبدو طبيبًا»

تراجع في مقعده بجذل مكررًا: «(يبدو طبيبًا).. حسنًا سيكون هذا ممتعًا على الأغلب.. أدخليهم»

استدارت بخفة تغادر مؤكدة: «بالطبع»

وخرجت تشير إلى الضيوف الثلاثة بالدخول، فور دخولهم قام (محمود) يرحب بهم بترتيب المعرفة. وتكفل (فوزي) بتعريفه رفيقهما قائلًا: «الدكتور (ملاك)، الذي كان يتابع مع (عبد الرحمن) من قبل»

تعمد (محمود) تغليف كلماته وابتسامته باستخفاف مميز وهو يقول:

ـ «أها نعم.. مرحبًا (د. ملاك)»

(ملاك) باقتضاب: «مرحبًا»

(محمود) يرسي قواعده: «رجاءً اجلسوا»

وراسمًا الفضول المستخف سأل:

ـ «هاه.. خيرًا؟ هل يريد (د. ملاك) متابعة حالة (عبد الرحمن) بنفسه داخل مصحتي؟»

قالت الزوجة بعد ثوان من التردد:

ـ «لدى الدكتور (ملاك) نظريةٌ ما.. طرحها علينا ونريد طرحها عليك»

التقطت أذن (محمود) الخبيرة تلك الـ(ما) المترددة بين الميل والاستبعاد، فانبرى إلى الأمام قائلًا:

ـ «أها.. (نظريةً ما).. حسنًا.. فلنستمع لها (د. ملاك)»

حدجه (ملاك) بنظرة فاحصة، وقال دون أن يبعد عينيه عن مجابهتَيْهما:

ـ «لست هنا في محل مجابهة معك، (د. محمود)، أو لأثبت أي شيء.. يهمني (عبد الرحمن)، ولدي طرح أطرحه عليك.. ثم المكان مكانك والحالة حالتك والإدارة إدارتك»

نصف هزة رأس من (محمود) تفيد الاتفاق، مع ابتسامة لم تخل من الاستفزاز المتواصل. أكمل (ملاك) محاولًا اجتذاب اهتمامه رغم كل شيء:

ـ «من البداية أُخبرك أن النظرية تستند على احتمال ممكن علميًا وطبيًا، لكنها في حد ذاتها ليست علمية أو مبنية على مبادئ نفسية معروفة.. وأنا فقط سأطلب منك الإصغاء وتحكيم المزيد من أدوات الطبيب النفسي المخضرم داخلك»

(محمود) يهز يديه: «دعنا من التملق يا (د. ملاك) من فضلك، ولتدخل في الموضوع»

(ملاك) يحتد: «ليس تملقًا لكن محاولة لاجتذاب إصغائك! اسمعني....»

«(عبد الرحمن) كان قد أخبرني أن لديه أختين توأمين.. أتى لي هذا الأمر -بعد استنفاد كافة الاحتمالات المعتادة- بخاطر مجنون، وقد سألتُ زميلته (سمر) عما إذا كانت عائلته بها حالات توائم أخرى، ففاجئتني أن جدته لأمه لها أخت توأم كذلك، ثم بسؤال أمه أكدت أن لها ابنتَي عمة توأمين أيضًا! إذن نحن أمام عائلة تنتشر بها ظاهرة التوائم بشكل ما.. إذن..»

ومال بجسده إلى الأمام موزعًا نظراته بالتساوي بينهم، ومكملًا:

ـ «دعونا نضع افتراضًا أن (عبد الرحمن) كان لديه توأم متماثل ملتصق، لكن لعوامل جينية لم يتم نمو الجنين الثاني وحصل (عبد الرحمن) على كامل الغذاء.. أنتَ تعلم بالطبع يا (د. محمود) أن هذه حادثة معروفة ومسجلة

في الطب، وقد ينتج عنها طفل كامل وآخر ضَمُر حتى صار مجرد كتلة ضئيلة ملتصقة بجسد توأمه، أو حتى جزء من خلاياه، أعني بذلك حالة (الكايميرا).... إذن ماذا لو كان لـ(عبد الرحمن) توأم ضمر في بداية تكوّنه حتى اختفى بالكامل داخل جسد أخيه؟ وماذا لو حدث ذلك وبقيت فيه الروح؟ هو افتراض بعيد حد الجنون، لكن لنراجع ما حكاه (عبد الرحمن) عن الصوت الذي يسمعه.. قال إنه يبدو كطفل مازال يتعلم الكلام، ويحدثه أنه معه منذ طفولته ويشاهد الدنيا من خلال عينيه، لكنه لم يكن يعرف أنه يستطيع التواصل معه حتى شهرين فاتا. قد استفسرتُ من السيد (فوزي) وزوجته وتأكدت أن (عبد الرحمن) ليس لديه أي تاريخ مع الأمراض النفسية، أو شبهة ميل نحوها حتى، ولم يحدث في حياته مؤخرًا أي شيء قد يدفعه لشطحة نفسية مثل هذه.. قد تأكدتُ بنفسي من هذا.. إذن فالأكثر احتمالية (علميًا ونفسيًا) أنها مشكلة جينية/وراثية.. ولكن إذا كنا سنذهب إلى ذاك الاحتمال، فلماذا لا نعطِ لذلك ولو الاحتمالية الكافية للتأكد.... أقول أن نجري أشعة وتحليلات على جسد (عبد الرحمن) ورأسه خصوصًا للتأكد من عدم وجود أي كتلة زائدة أو خلايا كايميرا داخله تشير لاحتمالية التوأم، أو عالأقل لأي اختلال آخر»

والتقط أنفاسه الآكلها كلامه أخيرًا، ثم قال:

ـ «هذا ما لدي»

استقر نظر الأبوين الدائر بين الطبيبين أخيرًا على (محمود)، الذي ظل على صمته ناظرًا لـ(ملاك) دون انفعال لعشر ثوان أو يزيد، ثم أنه انفجر فجأة في نوبة من الضحك صدمتهما، حتى أنه طرق على مكتبه ضحكًا في حركة واضحة الافتعال، ثم -من وسط ضحكاته- أرسل لغريمه وجهًا مستخفًا يقول:

ـ «رجاءً أخبرني أنك تمزح يا (د. ملاك)!»

تابعوا على t.me/book100100

أجابه ملاك بوجه صارم، وعقد ذراعيه مؤكدًا على جديته دون كلام، فما كان من (محمود) إلا أن ولى وجهه شطر الأبوين الحائرين وقال:

ـ «لا آمَلُ منكما -حرصًا على ابنكما- أن تسيرا وراء نظرية خارجة من فيلم خيال علمي أجنبي كهذه!»

وأمسك بملف من على مكتبه فألقاه على ذات المكتب في حركة سينمائية مكملًا:

ـ «علميًا وطبيًا هذه تخاريف!»

سارع (ملاك) يمنعه من تملُّك الحجة أمامهما:

ـ «وأنا أقول أن نجري أشعة وتحاليل للتأكد فحسب.. هذا لن يضير»

رماه (محمود) بنظرة شذرة، ثم هز كتفيه مستهزئًا:

ـ «حسنًا.. إذا كان السيد (فوزي) والسيدة (سامية) يوافقان على (بعزقة) نقودهما على أشعة لا طائل منها فإني لن أمنعهما!»

استعد (ملاك) لمخاطبتهما، حين أكمل (محمود) بلهجة خاصة:

ـ «لكني أذكرهما فقط أن (عبد الرحمن) كان يتابع معك أنت ذاتك عندما أخذ سوء حالته في التفاقم»

التفت له (ملاك) بصدمة مشمئزة، وقال باحتقار:

ـ «لم أتوقع منك أن تصطاد في المياه العكرة إلى هذا الحد! أنا...»

قاطعه (محمود) بنبرة حَرَص أن تكون الأعلى:

ـ «أنت في مكتبي داخل مصحتي يا دكتور!»

أشاح (ملاك) بوجهه عنه وقال:

ـ «حسنًا! وأنا لا أريد أن أبقى فيهما أكثر من ذلك.. سأرحل فور أن أسمع

رأي أبوَيْ (عبد الرحمن)»

والتفت إليهما متحاشيًا هالة (محمود) بالكامل، بينما نقل الأبوان نظريهما بين الطبيبين، ثم تبادلا النظرات، لتومئ (سامية) لزوجها بوجه يكتم البكاء، فيزفر هو ويبتلع ريقه فيقول:

ـ «حسنًا.. سنجري الأشعة والتحاليل طالما لا ضرر منها»

وتطلع إلى نظرات (محمود) الحانقة مغمغمًا يكمل:

ـ «فعلينا أن نتأكد من كل احتمال ممكن»

أطلق (ملاك) تنهيدة أمل حبيسة منذ مدة، لم تمر مرور الكرام على عيني (محمود) الضائقتين غلًا!

...

فرك (عبد الرحمن) عينيه يحاول إخفاء ملامح غرفة المصحة من حوله، لم تختفِ، فأسقط ظهره على السرير يضحك ساخرًا، نظر إلى السقف لثوان يتمالك أعصابه، ثم فرد كفيه وقال:

ـ «حسنًا أنا أسمعك.. من فضلك تكلم»

«أنا آسف»

ـ «لا تعتذر!»

«لا ترفع صوتك.. تكلم من داخلك سأسمعك»

ـ «أعرف.. لكني كلما فعلت وجدتني أعود تدريجيًا وعفويًا للحديث الجهري، لذلك دعنا نختصر الطريق»

«سيظنون أنك مجنون!»

ـ «هم يفعلون على أي حال.. عمومًا أنا لن أتحدث كثيرًا؛ فأنا أريد أن أسمعك.. حدثني عن نفسك.. عن أفكارك وتخيلاتك وأحلامك»

«..... حـسنًا»

ـ «قبل أن تبدأ.. تمالك نفسك وتحدث بشكل واضح.. تستطيع فعلها»

«حـسنًا..»

ـ «.......»

«هل تعرف؟ كنتُ أظن أن... أعني... أنا لم أبدأ في فهم نفسي إلا بعد أن تكلمتُ معك... أنا ا...»

ـ «.......»

....

انبرى (محمود) في مقعده المريح، يتابع الشاشة الكبيرة بغرفة مكتبه، والتي عادةً ما تنقسم لـ16 خانة ترصد مشاهدات كاميرات المصحة جمعاء، أما الآن فهي تعرض صورة كاملة لغرفة (عبد الرحمن)، المتربع على سريره غارق في تركيزه الخاص، يومئ برأسه بين دقيقة وأخرى.

استمر الوضع رتيبًا لأكثر من ساعة، مما استفز (محمود) فجعل يضرب بكفه على السماعة المدمجة بالمكتب مرددًا بخفوت:

ـ «هيا! هيا تحدث أيها المختل! تحدث!»

نصف ساعة أخرى من المراقبة المستفزة، ثم أنه قام يفرد عضلاته متضجرًا، وتحرك إلى مبرد المياه يملأ كوبًا بلاستيكيًا، حين أتاه صوت (عبد الرحمن) عبر السماعة يستطلع حديثًا، فترك الكوب من يده وعاد مسرعًا إلى مقعده يراقب الشاشة مرهفًا السمع إلى السماعة عن يساره.

ـ «هذا كثير لتحكيه! أسعدتني كثيرًا يا.....»

وصمت للحظة متأملًا، قبل أن يبتسم ويقول:

«حتى الآن لم أعرف لكَ اسمًا.... ما اسمك؟»

«لا أعرف! ليس لدي!»

- «يجب أن يكون لك واحدًا.. هيا.. اختره بنفسك»

«..... لا أعرف!»

- «لا تستصعب الأمر.. خذه من الناحية الإيجابية؛ أنت أول شخص -على حد علمي- ينال شرف تسمية نفسه»

«... لا أستطيع.. أنا لم أختر أي شيء في حياتي!»

- «لا أظن ذلك يا رفيقي؛ فأنتَ قد اخترتَ أن تتواصل معي.. كان ذلك قرارك وحدك، وقد استطعتَ اتخاذه وتنفيذه. يمكنك اتخاذ وتنفيذ أي قرار آخر، وليكن اختيار اسمك هو مبتدءها»

«..... حين يتعلق الأمر بالاختيار، فأنا لا أستطيع! وأشعر بالضغط الشديد.. أنا كلما عرفته طول حياتي أخذته عنك.. حتى مشاعري!»

- «مشاعرك!؟.... هل تعني شعورك بالأشياء من حولك بوجه عام، أم مشاعرك تجاه الآخرين أيضًا؟؟»

«بوجه عام.. تجاه الآخرين لم أستطع تكوين مشاعر كاملة أبدًا... أنا أعرف أنك تفكر الآن في (سمر).. لا تخف.. أنا.. أنا...

...

- «أصبحتِ مفضوحة أكثر مما يمكنني أن أصدق يا (نبيلة)!!»

ارتدت (نبيلة) إلى الخلف باستنكار:

ـ «مفضوحة!! ماذا تقصدين!؟؟»

مالت عليها تهمس غامزة: «أقصد ما يشغل بالك طوال الوقت.. أويس! أعني (من) يشغل بالك.... (عبد الرحمن)»

تتلعثم: «ماذا عنه!!؟»

تضحك ضحكة مسموعة عفوًا، وتعود لتهمس:

ـ «من كان يصدق أن (نبيلة)، (نبيلة) الزاهدة في الارتباط العاطفي، تقع على وجهها بهذا الشكل!»

يحمر وجهها: «اسمعيني جيدًا يا (خلود).. لأني لا أريد أن أحتاج لأكرر كلامي مرة أخرى.. حسنًا؟ (عبد الرحمن) أصلًا ليس من النوع الذي يستهويني»

(خلود) ساخرة: «نعم هذا واضح!»

تحتقن: «اتركيني أكمل! هذا كان أولًا.. وثانيًا: ليس من طبيعتي أبدًا أن أنظر لما في يد غيري.. أو لمن في قلبه!»

تميل عليها: «وثالثًا»

تشرد بارتباك: «لا أعرف.. حقًا لست أعرف يا (خلود).. لكني كلما نظرتُ في عينيّ (عبد الرحمن) شعرتُ بشيء ما يختبئ وراءهما، أو.. يطالعني من ورائهما.. كأنه... كأنه نداء خفي مثلًا، أو كأنه....»

(خلود) بحالمة هزلية: «كأنهووو... كأنهووو.. و(كلما نظرتُ في عينيه)! نعم فعلًا أنا أشهد أنه لا يستهويكِ أبدًا!»

تنتفض روحها: «أنا المخطئة لأصارح تافهةً مثلك لن تدرك ما أعني أبدًا!»

...

- «(نبيلة)!»

«أجل»

ابتسم (عبد الرحمن)، وسالت دموعه.

«أنا آسف إن كنتُ أصعب عليك الأمر»

يحتضن ذاته ويقول من وسط دموعه:

- «أبدًا يا أخي.. أنا سعيد كثيرًا لأنك بُحتَ لي بذلك.. وسعيدٌ أضعاف تلك السعادة لأنك أوصلتني الآن لاكتشاف عظيم!»

«وما هو؟؟»

- «ألم تدرك؟! (نبيلة) كانت تكرر محاولات الاحتكاك الحذر بي، دون أن تبدو عليها رغبةٌ حقيقية للتقرب مني.... (نبيلة) تشعر بك! لستُ أنا وحدي من يشعر بك! وهذا يدفعني للإيمان بك أكثر من أي وقت مضى، ولأحارب العالم كله دفاعًا عن وجودك!»

يشعر بالتهدج في داخله.. يسمع النحيب المكتوب.. يربت على قلبه ويقول:

- «وأنا أشعر الآن أنني أقوى بفضلك.. لا تقلق.. سنجد مخرجًا لكل شيء، وسنخرج من هذه المصحة منتصرَيْن»

استمع (محمود) إلى العبارة الأخيرة بوجه ثابت الملامح، مد أصابعه تطفئ صوت السماعة، ثم وجّه الريموت صوب الشاشة الكبيرة فأطفأها. هو لا يحتاج لأن يسمع المزيد الآن.. (ينظر إلى رف صغير من علب الأدوية متأملًا).. يحتاج لتحديث برنامجه العلاجي!

...

ـ «(د. ملاك)!»

التفت خلفًا، ليراها تهرول نحوه شاحبة الوجه والنظرات. حاول الابتسام لها قائلًا بارتباك:

ـ «مرحبًا (سمر).. كيف حالك؟»

عاجلته: «(عبد الرحمن) يا دكتور!»

ازدرد لعابه محاولًا مقاومة انفعاله لدى السؤال الذي فشل في تفاديه، وسأل باضطراب:

ـ «ماذا به؟»

اندفعت باكية:

ـ «(عبد الرحمن) يتدمر يا (د. ملاك)! لقد سمحوا لي بزيارته في المصحة أخيرًا ففوجئت بشخص آخر خائر القوى والروح، فاقد للثقة في الجميع، زاهد في كل شيء حتى حياته! لا أعلم ما يفعلونه به في تلك المصحة، لكنه يذبل أكثر فأكثر، وأنا.... أخشى أن أفقده.... كما فقدني هو!»

نكست رأسها عفوًا مع مختمة كلامها، بينما كان هو يستمع إلى كلامها بشطر ذهن، يجول بعينيه بعصبية في الأنحاء محاولًا الهرب مما أغار على الشطر الأكبر.. هتاف (محمود) المتبجح في وجهه منذ أسبوعين.

....

ـ «هل راجعتَ نتائج الأشعة والتحاليل جيدًا يا دكتور؟؟»

يشيح بالتقارير في وجهه في عصبية مفتعلة:

ـ «أم أنك تحتاج إلى نظارتك الفانتازية لتفهم النتائج؟؟»

يفشل في الرد، ويتقوقع عصبيًا أكثر؛ و(محمود) قد تفرّدت له المَلَكة فلن يتوقف!

التفت إلى الأبوين القهيرين مكملًا وصلة التأديب:

ـ «لا توجد أي كتل زائدة في الدماغ أو في أي جزء من الجسد.. لم يتم اكتشاف أي خلايا (كايميرا) في الجسد»

ليعود إلى (ملاك) مُنهيًا وصلته بحرفية قاتلة:

ـ «كم ألفًا أخرى من الجنيهات تفكر الآن في تكبيدها للأبوين المسكينين لتثبت، عفوًا، لتحاول إثبات صحة فرضيتك الخرافية!!؟»

كان هذا أقصى ما يمكن لـ(ملاك) أن يحتمله، التفض يغادر بينما استعد (محمود) لإلقاء توديع مميز.

ـ «(د. ملاك)!»

انتزعه نداؤها المغتاث من رمضاء الذكرى، إلى نار مواجهة كمّ الرجاء ذاك في عينيها!

ـ «أعرف أنكَ بذلت ما بوسعك مسبقًا.. لكني لا أملك غيرك الآن لمساعدته.. أنتَ أمله الأخير.... أرجوك!»

...

ربت (فوزي) على كتف زوجته الدافئة وجهها بين كفيها مجهشةً بالبكاء، ورفع ناظريه إلى (محمود) الذي هز كتفيه راسمًا بعض التعاطف الجاد على ملامحه، فعاد الزوج إلى زوجته يطالبها:

ـ «بكفاية يا (أم عبد الرحمن)! بكاؤك لن يفيد بشيء»

رفعت وجهًا محتقنًا مبللًا وناحت:

ـ «قال أن السبب في تدهور حالته هو نحن! نحن السبب فيما هو فيه!

تابعوا صفحة كتب على t.me/book100100

أنا... أنا...»

هز (فوزي) رأسه بأسى: «يكفي يا (أم عبده)!»

علا نواحها قهرًا:

ـ «يقول أن الهلاوس لم تتوقف، لكن أخاه هو من اختفى ليحميه مما نفعله به» (يزداد نواحها) «وأنه سيتمسك بأخيه ولو اضطّر للبقاء هنا للأبد معه وكفى.. قالها في وجهي (معه وكفى)!»

أبدى (محمود) أسفًا تخالطه نسبةٌ محسوبة من العتاب، وقال بنبرة قوية:

ـ «هذا ما خشيته منذ بروز ذلك المخبول (ملاك) ونظريته الفانتازية العجيبة.. مثله بالضبط كالقشة التي يحتاجها مريض الفصام للتعلق بأوهامه حد التقديس. ولولا برنامج العلاج الصارم الذي طبقناه من بعدها، لما وصل (عبد الرحمن) إلى هذا التقدم الذي لولا ما غرسه (ملاك) في رأسه من قبل لما كان يرفضه بتلك الشراسة الآن!»

وتركهما يتيهان في تراكيبه الأدبية المعقدة، بينما يجلس هو خلف مكتبه يرتب للخطوة التالية بتأنٍ.

«ماذا تفعلون!!؟»

هتف بها (ملاك) وهو يقتحم المكتب، فالتفت له (فوزي) وزوجته بدهشة، بينما تجاوز (محمود) صدمته سريعًا، وتراجع في مقعده قائلًا ببرود:

ـ «(د. ملاك)! كنا في سيرتك للتو!»

تجاهله (ملاك) تمامًا، ونظر إلى (فوزي) وزوجته الناحبة مواصلا هتافه المحتد:

ـ «مربوطٌ من أطرافه الأربعة بالسرير!!؟ هل تدركون ما تفعلون!؟ أنتم تحوّلون ابنكم من شاب يعاني مشاكل نفسية إلى مريض نفسي

عتيد!»

لم يمهله (محمود) الفرصة للتحاور، فانتصب مكانه مهاجمًا:

«أخفض صوتك يا دكتور! واحترم المكان الذي تقف فيه الآن!»

وأتبع يشير إلى الأم الباكية مضيفًا توابل خاصة:

- «وارحم العائلة المسكينة من خرافاتك الخيالية التي كبدتهم فوق ما يطيقون على فراغ!»

مزيد من الفلفل الحارق:

- «يبدو أن عنادك لمداراة فشلك قد أصاب عقلك بالمـ...»

قاطعه (ملاك) ممسكًا بتلابيبه، وهتف:

- «أيها الخبيث القذر!!»

حدّق (محمود) في ملابسه المقبوضة عليها كالمصعوق، ثم إلى وجه (ملاك) بغلّ، يقول ضاغطًا على حروفه يهرسها:

- «اتـرك ملابسـي فورًا أيها المختـل!»

طالع (ملاك) نظرة الجنون المتبدية في عيني غريمه، والأخير يكمل بشيط مكتوم: «سأحـرص أن تندم أشـد الندم، حين تنزل في ضيافتي هنا قريبًا أيها المختل!»

دفعه (ملاك) عنه كأنه يدفع الموت، وتحرك خارجًا تراقبه الأعين كلها بانفعالات متباينة.

هرول بين أروقة المصحة يسابق الوقت المتاح له، حتى اهتدى إلى غرفة (عبد الرحمن) فطرق بابها وهتف:

- «(عبد الرحمن)! هل تسمعني؟ أنا (ملاك).. أريدك أن تعرف فقط

أنني أؤمن بك! و(سمر) أيضًا تؤمن بك! لا تستسلم لأساليبهم في قهر إيمانك! وعُد إلى حياتك الطبيعية لتكسب إيمان أهلك وتخرج من هنا.. وحين تخرج سيكون كل شيء على ما يرام!»

في الداخل، كان (عبد الرحمن) يستمع بنصف وعي، يمنعه المخدر من الاستجابة لنداءات (ملاك) التي ما لبثت أن قوطعت وتباعدت حتى تلاشت، ومعها تلاشى ما تبقى من وعي (عبد الرحمن).

...

«أخي...»

يفتح (عبد الرحمن) عينيه ليرى الفراغ من حوله.

«أنا هنا»

يلتفت خلفه، فيراه!

كأنها نسخة سلوينية منه تتقدم نحوه ببطء.

ـ «أنت! نعم هذا أنت! هذا أنت يا أخي الحبيب! أنت حقيقي تمامًا!»

تبتسم ابتسامة خفية -يراها رغم ذلك- على وجه الآخر ويجيب:

«نعم هذا أنا.. أنا من دمّر كل حياتك»

يندفع نحوه فجأة فيحتضنه:

«إياك أن تقول هذا! لم يكن ذنبك»

يربت الثاني على كتفه ويقول:

«نعم أعرف.. لم يكن ذنبي، لكن ذلك لا يغير من الحقيقة شيئًا»

يبكي (عبد الرحمن) ويقول:

«استمع لنفسك.. أنتَ تتكلم بنبرات واضحة جدًا الآن! كما يمكنني أخيرًا أن أراك وأتحدث معك وجهًا لوجه! و.. سمعت هتافات (ملاك)؟ لقد صار يؤمن بك! و(سمر) كذلك! ألا تدرك يا أخي؟ أنت تصبح حقيقيًا أكثر فأكثر مع كـ...»

يقاطعه بهدوء:

«حقيقي أكثر على المستوى النظري فقط يا أخي»

يحتضنه أكثر متشبثًا:

«وهو يكفيني؛ لا أحتاج لأكثر.. لا أحتاج لشيء أكثر من أن تبقى معي!»

«اسمعني يا (عبد الرحمن)..»

يهتف: «لا لن أسمع! لقد انتظرتُ أسابيع لأسمع منك ولم تجبني.. الآن حين تبرر تريدني أن أسمع!؟»

يتهدج صوته:

«أرجوك اسمعني يا أخي. أنا أقدر للغاية تمسكك الشديد بي.. ولم أعد أحتمل نفسي ذنب ما آلت إليه.... لكن....»

وسكت من نفسه عاجزًا عن الإكمال، قبل أن يتنهد ويزفرها شاقة مؤلمة:

«لكن لا يمكننا أن نخدع أنفسنا للأبد. هذا الوضع لا يمكن أن يستمر؛ فأنت حتى لا تضحي بنفسك فقط من أجلي»

يحاول (عبد الرحمن):

«أبي وأمي سوف أنـ...»

يقاطعه: «هل فكرت يومًا في (سمر)؟؟»

أطرق (عبد الرحمن) رأسه يفكر في مقصد أخيه، الذي هداه مكملًا:

«يومًا ما ستتزوجان، هذا ما تحلمان به»

يدرك المقصدُ (عبد الرحمن) كالطعنة، بينما يواصل أخوه بذات الصوت المتهدج:

«كيف ستختلي بزوجتك وأخوك يشاركك كل لحظاتك وكل ما ترى عيناك وتسمع أذناك غصبًا عنك وعندا؟ فكر لدقائق وستجد العشرات من المواقف الأخرى لا يمكن أن أشاركك إياها مهما بلغت درجة تقاربنا... فكر.. أبوك لن يشعرا بي أبدًا، وأنا أبادلهما نفس اللاشعور.. طالما تشعر بي داخلك وتتواصل معي سيظلان يتعذبان أضعاف ما يعذبانك.. وأكثر وأكثر.... وأنا لن يمكنني أن أساهم في إحالة حياة كل هؤلاء إلى جحيم لأحيا أنا!»

يصرخ فيه (عبد الرحمن):

«أتريد أن تموت حتى تريحنا!؟ هذا انتحار! هذه جريمة وكبيرة ولن أشارك فيها أو أرتضيها لك!»

«لن أموت... من قال أنني سأموت!؟ ومن قال أنني الآن أحيا!؟ حياتي لم تكن يومًا ملعوسة ليكون موتي كذلك!... أظنني سأرحل فقط»

ملتاعًا: «إلى أين!؟؟»

يبتسم: «إلى حيث يرتحل أمثالي إن وُجدوا.. لعلي أقابل بعضًا منهم هناك، ونعيش سويا حياة حقيقية بالإجماع»

يقبض عليه أكثر:

«بماذا تتفوه الآن! أنا لن أسمح لك بالرحيل!»

انساب من بين ذراعيه كالهواء، وقال بحب:

«لن أرحل بشكل كلي.. سأبقي مني داخلك ما لا يضر ولا يقطع الوصال بيننا أبدا كذلك»

شبه مستسلم سأل وسالت دموعه: «ما هو؟؟»

. «الذكرى»

يتمعن فيه باكيًا إذ يبتعد كالسحاب إلى البعيد، ويكمل:

«ذكراي ستبقى في داخلك للأبد.. حيث سيمكنك دومًا أن تناجيني.. وأنا واثقٌ أنك ستتمكن من سماعي دومًا أرد عليك، حتى لو لم أكن هنالك فعلًا»

يندفع نحوه:

«لا! انتظر! أنا لا يمكن أن أتقبل الأمر أبدًا!»

يبتسم:

«عدني أنك ستفعل، وستحظى بحياة مستقرة وسعيدة مع أهلك و(سعر).. وستشكر (مالك) بالنيابة عني.. جميعكم تستحقون الاستقرار والسعادة»

تتباطأ خطوات (عبد الرحمن) لاشعوريًا مع إحساسه باللاأمل، فيهتف راجيًا:

«وأنت!! بماذا يمكنك أن تعدني في المقابل!؟؟»

يبدأ بالانصهار في الفراغ من خلفه محافظًا على ابتسامته:

«أعدك أن أبحث عن الاستقرار والسعادة اللذان أستحقهما»

مراقبًا تلاشيه الأخير عاجزًا، يبحث عن محاولة أخيرة فيهتف:

- «لحظة يا أخي! ماذا عن (نبيلة)؟؟»

تسيل دمعة خفية على خدٍّ تلاشى، والابتسامة الأخيرة قبل تمام الانصهار تتمتم:

«وداعًا يا أخي»

...

فتح (عبد الرحمن) عينيه ببطء، ليطالعه وجها أبويه الطافحان قلقًا.

احتضنته أمه ملتهفة وهتفت:

ـ «ابني! ابني حبيبي! هل أنت بخير يا ضنايَ؟»

بصعوبة استطاع النطق:

ـ «أنا بخير يا أمي.... وأريد العودة إلى البيت»

قبّلت أمه وجنته وجبينه، واحتضنته أكثر مطمئنة:

ـ «سنعود للبيت حالًا يا حبيبي.. سنعود حالًا ولن أسمح لنفسي أن آتي بك لأي مكان مثل هذا مرة أخرى!»

فشل في الابتسام، ورفع ناظريه المزغللين إلى وجه والده المشفق، قبل أن تنفرج شفتا الأخير عن سؤال لم يستطع له كتمًا:

ـ «والهمسات التي تسمعها يا ولدي؟؟»

اندفعت يد (سامية) تلكزه في جنبه بقوة، واستعدت لوصلة توبيخ من القلب، لكن صوت (عبد الرحمن) خرج هادئًا:

ـ «اطمئن يا أبي.. الهمسات رحلت.. للأبد»

تبادل الأبوان النظرات والابتسامات المحبة، ومد ابنهما ساقيه ببطء خارج حدود السرير، قائلًا بذات الهدوء:

ـ «هيا لنعود للبيت فورًا»

أسنداه حتى أنزل ساقيه أرضًا، واستمرا يتمشيان به خارجين، وهمست له أمه من قلبها:

ـ «أوحشتَ بيتك كثيرًا يا (عبد الرحمن)»

ابتسم لها أخيرًا، وأجاب بصوت يبتعد عن الغرفة تدريجيًا:

ـ «هو أوحشني أيضًا.. خذاني إليه الآن لأستريح.. واتصلي يا أمي بـ(سمر) لتطمئنيها.. أخبريها أن تتصل بـ(ملاك) أيضًا.. هناك ما أريد أن...»

*

تحركت شفتا (أندي) المبللتان بالدموع مرتعشتين تبوحان:

- «تقولون أن كل واحد هنا، هنا لأنه قدّم تضحية نبيلة.... لا أستطيع أن أرى تضحيتي نبيلة....»

يزداد ارتعاش شفتيه كل مرة تلفظان (نبيلة).. ويكمل عانيًا:

- «كانت تضحيتي جبرية رغم الاختيار.. شرح (ويليام) من قبل كيف أن التضحية ليست مشروطة بضمانات، وأنا لا أهتم إن كانت تضحيتي نبيلة أم لا.. لكن ما يقتلني فعلا أنني لا أستطيع تصنيفها أصلا. ككل شيء في حياتي الوضيعة.... القوة التي تسلحتُ بها لإقناع (عبد الرحمن) ليست كافية لاحترامي»

تطلع الجميع إلى (أندي) لا يبصرونه، يعجزون جبراً واختيارًا عن المقاطعة، بينما اهتزت شفتاه عن شبح ابتسامة وقال:

- «ربما لم أنتقل إلى عالم من أشباهي كما أملت. لكني على الأقل انتقلتُ إلى عالم يسمعني فيه الناس ويستشعرون أحاسيسي.. وهذا أقصى ما احتجت استكفاءه مؤخرًا.. لذا أنا لا أنتظر منكم تعقيبًا أو شد أزر.. شكرًا لكم.. شكرًا لأنكم استمعتم.. وشكرًا لـ(أندي) لاحتماله إياي داخله حتى أنتهي.. شكرًا جزيلا»

أطرق الجميع عاجزين عن استيقاف عاجل، بعضهم يرتب أفكاره وآخرون يفشلون في مداراة عجزهم، أعينهم الدامع أغلبها تنسحب عن (أندي) توازيًا مع شعوره بانسحاب عجيب عن جسده، حين علا صوت قوي يقول:

ـ «انتظر!»

انقطع الانسحاب، وتحركت النواظر نحو المحارب النوردي المتقدم من بعيد. (فليش) يلكز (أمير) برفقه المدبب، والأخير يترقب مشدوهًا.

توقف المحارب أمام (أندي) مباشرةً وخاطبه ببرود:

ـ «هل تعرف لماذا أنا هنا؟»

اهتزت رأس (أندي) مرتعشةً تنفي، فأجاب بصوت أفرغ فيه مكابيته:

ـ «لأنني فديت صديقًا لي بروحي.. صديق كان قد فداني بروحه في حياتنا الأولى. وأنا سددت دينه.... لكن متى؟ في معركة أعلم ويعلم ويعلم العالمون أن كل من فيها إلى زوال. كانت تضحيةً أسوأ من أن تكون جبرية كتضحيتك.. كانت تضحيةً عبثية.. محاولةً فاشلةً ناجحة لتسديد دين. قد يقول هذا المحارب الضخم المنير أنها تضحية نبيلة رغم كل شيء، وهذا الأمير الصغير أن نبل أخلاقي هو ما يشعرني بالتأنيب، ولاعب الكرة أن مآل التضحية ليس الأهم.. لكني أعرف جيدًا ما فعلت ودوافعي الحقيقية لفعله.. وأنه لم يشفع لي فيه أمام نفسي إلا أنني إلى موت أخير بعدها ولن يكون هناك ضمير ليؤنبني على اعتبارها تضحية.. لكن ها أنا هنا أعاقب للأبد!»

ألجمت كلماته القاسية شفتي (أمير) حتى كادت تلويهما، وتعلقت عينا (أندي) المرتعشتين بالمحارب، الذي خلع درعه وعتاده فألقاهما جانبًا، ثم تقدم فقبض على كتفي (أندي) ونظر إلى ما بداخل كيانه وقال:

ـ «ليس عليك أن تجد تصنيفًا لتضحيتك.. لقد ضحيت.. فعلتَ ما رأيته الصواب أمام نفسك في كل الأحوال.. لا تندم ولا تبخس ما فعلت. تعلم لماذا؟ لأني سأفعل الشيء ذاته منذ اللحظة.. وكل واحد في هذه الڤالهالا سيفعل منذ اللحظة!»

سالت دموع ضبابية من عيني (أندي)، وأخيرًا ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتيه المرتعشتين، لتصدر عنهما الكلمة بروح مختلفة هذه المرة:

ـ «شكرًا لك»

بادله النوردي الابتسامة بقوة، والكلمة كذلك:

ـ «شكرًا لك»

والتفت فجأة قابضًا على ذراع (أمير) يجذبه فيحتضنه بقوة قائلًا:

ـ «وشكرًا لك على التكريم أيها الأمير!»

تجمد وجه (أمير) ذهولًا، وسالت دموعه بلا حساب، بينما البسمات تتناثر على الوجوه من حوله كالنور. تردد شكر أخير في عقل (أندي) قبل شعوره بتمام الانسحاب عنه، ليلهث مضطرب المشاعر، حين تربت يد على كتفه، فيلتفت ليجد (سعد) يقول مشجعًا:

ـ «أنت الأفضل يا بطل!»

لتكتمل اللوحة بارتسام الابتسامة الأخيرة على الوجه البسيط.

نظر (فليش) لـ(أندي) وقال منتشيًا:

ـ «والآن عليك اختيار اسم لنفسك يا رفيق؛ لنناديك به منذ اللحظة»

تلعثم (أندي): «لقد... رحل عني!»

ابتسم (أمير) ونظر فيما حوله قائلًا:

ـ «سيجد اسمًا، وجسدًا حقيقيًا، وكل ما يحتاج.. كما وجد الرفقة الطيبة في (فالهالا) التكريم»

تابعوا على t.me/book100100

أشار له (نور) بإبهام التأكيد، لتمتد ستة أذرع بذات الإبهام تباعًا، كحلم يتحقق احتضن (أمير) فاحتوى روحه، حتى لأغمض عينيه يستشعر حلمه الأجمل.

وفي غمرة انتعاشه، شعر (أمير) بالوعي يتسرب إليه، فانتفض متنشلًا نفسه من وضع الانسجام. تطلع الجميع إليه، وسأله (فليش) بصوته الرفيع:

- «هل هو الاستيقاظ؟»

قال (أمير) بينما يقفز: «نعم!»

ليهبط بسلاسة على غيمته المسحورة، ويكمل منطلقًا عنهم:

- «ولا أريد أن أستيقظ قبل سماع قصة أخيرة!»

ومبتعدًا نحو الأشجار الكثيفة، رفع يديه محييًا وهاتفًا:

- «أنتم الأروع يا أبطاااليييي!»

ضحكوا لهتافه، والتفت (سعد) لـ(ويليام) سائلًا بمرح:

- «هل تظنه سيلحق؟»

هز (ويليام) كتفيه وقال يبادله المرح:

- «هذا يعتمد!»

...

انطلق (أمير) بين الأغصان المتوالية يجول بأبصاره بينها جميعًا مرددًا:

- «هيا هيا هيا! أرجوك!»

رآه أمامه، جالسًا على غصن واضح رافعًا يده إزادةً في الإيضاح.

خفف (أمير) سرعته حامدًا الله، حتى استقر أمام الشاب مباشرة، ليبتسم الأخير ويقول متحديًا:

ـ «تعلم؟ يمكنني الاختفاء عن ناظريك للأبد.. لكني لم أفعل»

ضحك (أمير) بعصبية وقال: «ممتن فعلًا لإشفاقك علي»

ببطء، وضع الشاب يده على صدره، وقال لاذعًا:

ـ «ليس بالضبط.... لكن تلك الأنخليتا ضايقتني كثيرًا، ولعلي أريد ختام رحلتك بتنظيف ما لوثته هي»

قرّب (أمير) وجهه سائلًا بعصبية:

ـ «إذن..؟؟»

ارتجف جسد الشاب فجأة، قابضًا على بقعة كبيرة من الدماء لحظتها فقط تبدت على قميصه، وابتسم لـ(أمير) لاهثًا بانفعال:

ـ «هذه قصتي....»

....

ورمٌ حميد

حتى الرياح سكنت فجأة، ليسود صمت مطبق.... إلا من صوت قطرات تتساقط على الأرض!

فتحتْ عينيها بخوف، فصدمها مشهد الدماء المتناثرة على يديها وثيابها. لم تشعر بها! تتحسس جسدها هلِعة، حين تنتبه لآثار القطرات المترامية أمامها، فتتبع أثرها حتى ذلك الجسد الذي صد عنها الأفق، وكذا صد الرمح القاتل، وقد اخترق المسنون صدره حتى كاد ينفذ إليها، لولا أنه قبض عليه حاجزًا إياه بيديه وجسده.

لم تحتج ثانيةً واحدة إضافية لتدرك أنه هو..

ارتعشت شفتاها وروحها، وأفرجت عيناها عن دموع ناهرة. دون وعي تمتمت بلوعة:

«لـ... لماذا!!؟؟»

رغم أنه لم يلتفت، رأت ابتسامة كانت معهودة ترتسم على شفتيه، وبصوت سائل بالدماء أجاب:

«تعلمين يا غاليتي..»

دموع ملتاعة منها، وصوت ذاهب!

يلتفت بنصف وجهه الباسم ويقول بصوت فعل بها ما لم يدركه الرمح:

«لأنني...

...

تتقافز بقدميها الصغيرتين على العشب الندي، حتى تصل إلى شجرتهما الأثيرة، فتتلفت حولها بوجه طفولي حانق وتقول:

«حسنًا.. أين أنت؟؟»

لا رد سوى أصوات الطبيعة الصبوح. تخبط بقدمها على الأرض وتغمض عينيها لتهتف:

«أين أااانت؟؟؟»

يستفزها الصمت، فتستعد للعودة.. وفجأة تراه يهبط من الأعلى أمامها مباشرةً هاتفًا: «مفاجأااااة!»

تصرخ فزعة، فيضحك هو بمرح طفولي ويقول بانتصار:

«لن تكتشفي مكاني أبدًا أبدًا!»

تحدق في وجهه بآثار الفزع على وجهها وفي عينيها، ثم تصرخ فيه وهي تلكمه في صدره بعنف:

«وغـــــد! وغـــــد!»

يضحك لصراخها بما لا يعرفان معناه حتى، ويمد يده إلى ظهره فيسحب الزهرة الحمراء الصغيرة من مخبئها.

يمد يده بخفة ليضعها بين خصلات شعرها القصير باسمًا، فتسكت.

...

تقترب بخطوات هادئة تجاه شجرتهما الأثيرة، فتتوقف عندها، وتبدأ في التلفت حولها كالمعتاد.

تدقق بين الغصون كثيفة الأوراق وتهتف:

ـ «حسنًا.. لن يطول اختباؤك هذه المرة»

تمسح بعينيها كل ورقة شجر، وكل زهرة نبتت وسطها. دقيقتان كاملتان مرتا

قبل أن تزفر حانقة وتقول:

ـ «حسنًا.. أنا أستسلم!»

أتاها الصوت من خلفها مباشرةً يهتف:

ـ «كنتُ أعلم ذلك!»

انتفضت من الفزع، والتفّت بسرعة، لتجده واقفًا يضحك بانتصار.

قال باستخفاف:

ـ «طوال سنوات لم تنجحي ولو لمرة واحدة.. متى ستتوقفين عن المحاولة؟؟»

تنقض عليه فتُعدّد لكماتها على صدره بحنق:

ـ «ليس قبل أن أنتصر عليك أيها الوغد! أيها الوغد!»

تظل تكررها بدلال، حتى يسحب الزهرة الحمراء الجميلة ويضعها بين خصلات شعرها المنسدل، فتبتسم باستحياء، ثم يضحكان معًا.

...

خطواتها الهادئة تناغمت مع ألحان الطبيعة الساحرة، وكأنها جزء من لوحة متحركة بديعة التكوين.

توقفت أمام شجرة الزهر الأثيرة، وابتسمت قائلة بثقة:

ـ «على ارتفاع تسعة أمتار.. الغصن الرابع على اليمين.. بجانب الغصن المعقوص»

اهتز الغصن الذي أشارت إليه للحظة، قبل أن يهبط هو على الأرض أمامها ضاحكًا، وقال:

ـ «لقد فقدتُ مهارتي على ما يبدو!»

تابعوا على t.me/book100100

هزت كتفيها قائلة:

ـ «أو أن مهارتك لم تعد تجاريني»

ضحكا بمرح، ومد هو يده إلى ظهره سائلًا:

ـ «وهل هذا يمنعني من استكمال طقوس الوغادة أيضًا؟»

بمرح تظاهرت بالتفكير لثوان، ثم قالت:

ـ «أنا لستُ شريرة جدًا لأحرمك من كل شيء»

وضحكت، فسحب هو الزهرة الحمراء الجميلة من مخبئها، ومد يده نصف مدة، ثم تطلع إلى حجابها بحيرة مرحة، قبل أن يضحكا مرة أخرى، ويناولها الزهرة في يدها قائلًا:

ـ «سأحتاج بعض الوقت لأعتاد التغيير»

ابتسمت له، ثم تحركا يتمشيان في جولتهما الأثيرة بين الأشجار. ثوان كثيرة من الصمت مرت، قبل أن ينتهد ويقول:

ـ «ليتنا بقينا صغارًا!»

سألته مندهشة:

ـ «لماذا!؟؟»

أجاب بمرح:

ـ «لأستمتع بثرثرتك الطفولية المتواصلة بدلًا عن هذا الصمت المطبق»

ضحكت عفويًا حتى بدأت تسعل، ثم ابتسمت وقالت تنظر للسماء:

ـ «أنت تعرف أن أشياءً كثيرة قد تغيرت»

تنهد وقال:

ـ «نعم نعم.. وأنا الآن مضطر لانتظار مزيد من الأشياء لتتغير»

مرة أخرى تسأل بدهشة:

ـ «أي أشياء!؟؟»

يجيب باسمًا:

ـ «أعني مزيدًا من السنوات.. حتى تصبحين مؤهلة للزواج!»

يتلون وجهها بلون زهرتها وتتلعثم مرددة:

ـ «الزواج!!؟»

يجيب بهزل:

ـ «نعم؛ فالمرأة بعد الزواج تصبح آلة ثرثرة.. وسأتطوع أنا للتخفيف عن آذان زوجك حينها»

كتمت ضحكة عصبية وقالت من بين أسنانها:

ـ «وغدٌ كبير أنت!!»

ضحك لمنظرها حتى زادها حرجًا، ثم قال بجدية:

ـ «أمزح بالطبع بشأن زواجك من آخر..»

عاد الحرج الأول لوجهها فورًا، قبل أن يعاجلها بسهمه التالي:

ـ «فلا أعرف أحدًا غيري قد يقبل بالزواج منك!»

نال أخيرًا اللكمة المحببة في صدره، وهي تكرر بحنق:

ـ «وغد! وغد!»

استغرق في نوبة من الضحك السعيد، وقررت هي أن تبادر بالهجوم مُخفيةً وراءه مآرب أخرى، فقالت:

ـ «تتكلم بثقة وكأنني قد أقبل أنا بالزواج منك مثلًا!»

رسم جدية هزلية على وجهه وقال:

- «ليس لديكِ خيار آخر»

بتحد: «ما شاء الله! وعلى أي أساس!؟»

يكسي الجدية بالثقة:

- «لأنه لا يمكنكِ الخلاص مني»

تشاكس أكثر: «ولماذا لا يمكنني الخلاص منك!؟؟»

يقفز أمامها فجأة مُنشدًا:

لأنـنـي ورم حمـيـــــــد ♫

♫ مستحيــلٌ أن يـــزال

♫ أنا حارسٌ في الظـــلال

يحميكِ حتى النهايـــة ♫

تجمدت ملامحها على الذهول، ودارت الكلمات بين مسامعها ومنها إلى أنحاء روحها منتهيةً إلى قلبها. التفتت له بذهول، فابتسم لها وقال:

- «ألّفتها لكِ خصيصًا.. أعجبتك؟؟»

تلألأت العبرات في عينيها، ولم تملك إلا أن تبادله الابتسام وتقول:

- «أنت وغد!»

...

تململ في جلسته القرفصاء المتعبة، محافظًا على ثباته على الغصن الشاب يخشى منه أدنى اهتزاز. لا يبدو أنها ستأتي اليوم، لكن عناده المتأخر بكثير عن سنوات عمره العشرين يحذره من هزيمة مفاجئة.

بعد ربع الساعة كان الجمع المتجمهر يتضح له شيئًا فشيئًا مع اقترابه من طرف القرية البعيد بعد أيس الانتظار. تسارعت خطواته بالتزامن مع ضربات قلبه للوقوف على متوجَّسٍ منه، وفور أن أدرك كتف أولهم أسرع يسأله:

ـ «ماذا هناك؟»

أجاب مسؤوله بتوتر:

ـ «إنه الحكيم.. مريضٌ للغاية، وقد طلب حفيدة أخيه ليخبرها وصيته»

إذن فحفيدة الأخ بخير. زفر (ضياء) يفرغ روعته واستعذر المتجمهرين يسألهم إفساح الطريق ليقترب ويستطلع. في منتصف الطريق سمع شهقاتِ فعويلَ سيدةٍ أو اثنتين. حاول الاشراف برأسه فالقفز للاستكشاف فلم يبلغه؛ لم يجد إلا التنافذ بين الأكتاف نحو الكوخ الصغير.

لاح له وشاح الحكيم تتطاير أطرافه من بعيد.. الهلع من جديد! الآن صار يخترق الواقفين بقوة نحو الكشف الفصل.

ليراها! أمام باب الكوخ، تعتنق الوشاح الفضي، يتطاير طرفاه عن جانبيها كما تطايرا عن جانبي الحكيم لعقود باتت تاريخًا الآن. ومع الوشاح يتطاير تماسك (بثينة)، محدقةً في الجموع وقد تناثرت تعابير الصدمة على وجوههم، مدركين كما أدرك (ضياء) معنى ذلك المشهد.

...

لم يكن متاحًا غير منتصف الليل للُقيا صعبة عند ذات الشجرة.

حدَّقت في عينيه تلتمس مَأزرًا أو مَهربا، فمنحها ابتسامة داعمة دامعة، وأشار لها مضطربًا أن تجلس، فانفجرت فجأة:

ـ «لا يمكن أن أصير أمينة الوشاح هكذا فجأة! إنه حتى لم يعطني أي تماهيد أو تلميحات من قبل؛ فقط حكايات أسطورية مسلية كلما زرتُه! فيم كان يفكر ليكلفني بذي مسؤولية لدى احتضاره فقط!!؟»

نازع انقباض صدره ليجيبها. قال بخفوت:

ـ «اعتدنا أن تكون له حكمة نافذة في كل أمر»

تهتف: «الجميع يُذكّرني بذلك! حتى أنا أذكّرني بذلك! أرجوك.. أرجوك قل شيئًا جديدًا!»

تغالبه دموعه: «لا أعرف! مازلتُ لا أستطيع التصديق!»

تنهار جالسةً وتنوح:

ـ «هذا كابوسٌ يا (ضياء)، كابوس! أنا لستُ مستعدةً بأي شكل كان لِذي مسؤولية قاسية.. العجيب أن ابنه أو أيًا من أقاربه لم يعترض أو يُبدِ حتى امتعاضًا! الجميع امتثل وشد بأزري بشكل عجيب! لماذا تسير الأمور بذي مثالية فقط عندما لا نريدها!؟»

ودفنت وجهها بين ركبتيها تنتحب. متطلعًا لها بلوعة، يعتصر شفتيه يستجمع قُدرةً على كَونِ السند. راقب الوشاح الفضي المتطاير من حولها بإصرار، فاقتبس من إصراره، وزفر بقوة رفعتْ هي لها رأسها، لتقابلها ابتسامة قوية انفرجت عن حديث:

ـ «اسمعي يا بثينة.. هي صدمة كاسرة ومسؤولية شديدة، لكننا لا نعرف حتى الآن مدى قدرتكِ على تحملها. كلانا يعلم أن جدك أمين الوشاح لم يكن ليكلفك إياها إلا عن حكمة وغاية وثقة في قدرتك على كَفلِها. وتعلمين أن ثقته مهما بلغت فثقتي أنا بكِ أقوى وأعظم»

تحدق في وجهه باكية، عيناها لا تقبلان سكوته تسألانه المزيد. يتشجع فيمنحها:

ـ «عهدناكِ مغامرةً عنيدة.. فلنقبل التحدي ونخوض غمار ذي مسؤولية بشجاعة.. لستُ أظنكِ إلا بحاجة إلى مُساعد وغد، وسيكون كل شيء على ما يرام»

ابتسمت رغمًا عنها لتقليده لهجتها وألفاظها، وللطفه في ممازحتها داعمًا.

ـ «لم أسمع ردًا!» يعطيها نظرة هزلية الحزم.

تفلت منها ضحكة عصبية. تمسح دموعها وتقول:

ـ «توقعتُ أن يُجزعك الأمر أكثر مني»

يبتسم حابسًا دموعه، ويصرّح:

ـ «هو كذلك.. لكني سأتجاوز هذا من أجلك»

تُلاقي عينيه، تبتسم، وقلبها يضخ الدماء إلى وجنتيها مُعلنين القبول بمعانيه.

يهز كتفيه ويقول:

ـ «ثم إنه بالنظر إلى الجانب الإيجابي، ستصبحين شعبية جدًا الفترة القادمة، ولن أعود مضطرًا للزواج منكِ لاحقًا لانتشالك من بؤس العنوسة»

يزداد احمرار وجنتيها، وتهتف به بحنق ضاحك:

ـ أنتَ لا تنتشي إلا حين ألكمك في صدرك! لكن أوتعرف يا ورمي الحميد؟ لن أنولك مبتغاك ذي المرة!»

وتلحقت بوشاحها في علامة ابتسم لها، مبتعدةً بخطوات باسمة، بينما رسم هو عبوسًا طفوليًا على ملامحه وقال يغالب الابتسام والدموع معًا:

ـ «أنتِ وغدة!»

...

دارت ببصرها بابتسامة بدت مضحكّة جدًا للأطفال من حولها، مما ضاعف انفعالها، قبل أن تولّ وجهها شطر الكتاب القديم في يدها وتزفر خافتة:

ـ «يمكنني القيام بذا أمر»

ورفعت وجهها بابتسامة أكثر جدية، أو أقل إضحاكًا للأطفال من حولها، وقالت:

ـ «اليوم سأحكي لكم قصة عظيمة عن الوفاء.... تحكي قصتنا عن...»

تقاطعها بنت خمس:

ـ «لكنكِ لم تذكري اسم القصة!»

تتسع ابتسامتها انفعالًا، وتقول:

ـ «هذا صحيح! أحسنتِ!.... القصة اسمها (وفاؤنا)»

وبدأت تحكي ببطء حريص، فلاحظت بعد قليلٍ أنها ملكت انتباههم جميعًا مع أوائل السطور، ويبدو أن لكنتها الشمالية قد راقت لهم حكيًا؛ أيقظ ذلك حماس الطفولة داخلها، فانطلقت تندمج أكثر في الحكي، مُرفقةً إياه بما استدعى من تعبيرات وجه وحركات يد تناغمية سلبت ألباب مستمعيها الصغار إلى حد بعيد.

تقف ناصبة قامتها وتهتف:

ـ «وقف المزارع الشجاع في وجه المعتدي وقال (هذه الأرض ليست مجرد أرض! هذه الأرض التي أطعمتني واحتملتني.. وهذه الشجرة ليست مجرد شجرة! هذه الشجرة التي احتوتني وأظلتني. أنا لن أتخلى عنهما أبدًا!)»

وراقبت من لمح خفيّ تعلق عيون الأطفال بها انبهارًا وتشوّقًا، فأكملت:

ـ «لحظتها ارتجّت الأرض تحتهما بشدة وكأنها تؤيده! والشجرة الكبيرة

راحت تهز أغصانها بقوة وكأنـ...»

ارتفع لحظتها صوت الحفيف شديدًا من الشجرة الكبيرة من خلفها، التفتت ومعها أعين الأطفال وشهقات انبهارهم نحو الشجرة بذهول، لثوان قبل أن تبتسم ابتسامة تحاول عفويًا كتمها، وقد توردت وجنتاها مع تضارب مشاعرها. سمعت الأطفال يتهامسون حول قدرات أمينة الوشاح، فقررت انتهازها فرصة.

التفتت نحوهم محركةً ذراعيها مع صوت الحفيف ذي الإيقاع الحماسي، وعيناها على السطور مكملة:

- «والشجرة الكبيرة راحت تهز أغصانها بقوة وكأنها تدعمه! شعر المعتدي بالخوف وتراجع إلى الخلف، فهتف فيه المزارع الشجاع (نعم ابتعد! ابتعد عن أرضنا ولا تعد أبدًا وإلا ستندم!)»

إيقاع الحفيف يتناغم مع إيقاع حكيها.. تتسع ابتسامتها وتدور حول الأطفال مكملةً بحماس:

- «شعر المعتدي بالغضب، فأمر أتباعه أن يهاجموا المزارع وشجرته ويقطعوها»

تدور حول نفسها كأنها تُراقِص الكتاب بجذل:

- «لكنهم حين بدؤوا الهجوم، هاجت عليهم الأرض فأطاحت بنصفهم إلى السمااااء!»

الإيقاع يجاريها وتتصاعد حماسته مع حركات الأطفال تكمل الجوقة.

- «وخرجت جذور الشجرة من الأرض تضرب البقية فتقذفهم إلى الجباااال!»

الأطفال يقفزون ويتصايحون.

- «وحينها وجد المتعدي الشرير نفسه وحيدًا. وألقت أزهار الشجرة بشوكة كبيرة أصابت عينه، فتأوه وصرخ في وجه المزارع الشجاع بأنه سيعود مرة أخرى وينتقم منه ومن الأرض والشجرة، ثم هرب بعيدًا كالجباااان!»

هتفت بالمُتمّمة وهي ترفع ذراعها بالكتاب عاليًا في نصر، والأطفال من حولها يتقافزون مُطلقين الصيحات، ويشيرون نحو الشجرة بسعادة.

أنزلت ذراعيها تشعر بشغف جديد يجري في عروقها، لم يُفت عليها أن تنتبه لخفوت شدة الحفيف بنغم تدريجي، حتى سكت أخيرًا، ومعه هدأ الأطفال؛ قبل أن تجد إحداهن زهرةً حمراء صغيرة تسقط بنعومة على ذراعها، فتحدق فيها ثم للشجرة بانبهار، ثم تمسك بها وتتقافز هاتفة بسعادة:

- «الشجرة أرسلت لي زهرة! الشجرة أرسلت لي زهرة!»

تحلّق حولها باقي الأطفال في انبهار، بينما التفتت (بثينة) ببطء إلى بقعة معينة من الشجرة، وابتسمت ذات الابتسامة المكتومة، لكن بامتنان جم.

تنهدت في نشوة، ثم التفتت إلى الأطفال تطلب أن يتبعوها عائدين إلى القرية.

ومن خلفها، تراقصت أوراق الشجرة بسعادة.

...

هو الخريف، حيث الشجرة العزيزة عارية الجذوع فلا مُختبأ ولا مختبئ، لكن للأخير كانت أسبابٌ أخرى للتخلف عن عادته الأثيرة.

على بُعد ساعة من النسيم، كانت (بثينة) تجلس أمام كوخها تطالع بعض الكتب، يمر عليها أنفار من أهل القرية من آن لآخر يسألونها وصيةً أو

استشارة، فتقلب في الصفحات من أمامها حتى تجد فيها ما تفيدهم به فتتلوه عليهم.

هي قد انخرطت في الأمر بقبول عجيب درجةِ أنها لم تَعجب منه! رهبتها تطايرت مع تطاير الوشاح الفضي عن جانبيها طوال الوقت. قد شعرت بعد حين قصير من اعتناقه أنه يحمل ذات ما حملته نظرة جدها الحكيم لدى إلباسها إياه: الإيمان بها. حتى استناده على كتفيها تشعر وكأنه يَدان تشدان عليهما. هل ما تدركه فهمًا وحسًا الآن هو ذاته ما أذعن له الجميع لحظة ميراثها الوشاح؟ تبتسم.. «ربما!»

بين لحظة وأخرى تتسع أذناها لخوافت أصوات من الأنحاء حولها، تنقطع عفوًا عن القراءة، ثم تزفر وتحاول الانغماس فيها أكثر. لقد ضجرت من التفكير كل مرة في احتمالية أنه هو.. تحوّل الأمر من أحجية مسلية إلى ضيق نفس. تفكر مبالَغةً أنها لو عادت لتقابله يوميًا لما اقتطع من وقتها قدر ما تقتطعه لحظات التفكير فيه، المتكررة باضطراد على مدار اليوم. لربما عليها أن تقابله فعلًا؛ فاللقيا تباعدت إلى قرب الشهر الآن!

نعم ستقابله، لكن متى؟.... حسنًا، يجب أن تنهي مطالعتها الآن أولًا ثم يكون لها أن تفكر في أمورها الشخصية.

...

تعرّف فورًا على ذات البيتْ وكأنه مازال يرى الزهرة الحمراء مستقرةً على ذراعها إذ تتقدم إلى مسكنه باستحياء. قفز من النافذة فورًا إلى الأرض أمامها بشكل أوقفها مكانها فزعة، فاقترب منها مبتسمًا بود لم يُغطَّ على تلهفه لما أتت به. استجمعت الصغيرة تمكنها، ثم قالت بصوت عالي النبرات كأنها تُسمِّع:

- «طلبت مني أمينة الوشاح إخبارك أن تلتقيها في المكان نفسه بعد ساعتين»

أغرقته كلماتها في شرود لحظي، مستمرًا في النظر لها لا يراها، فارتكبت، لينتبه هو ويبتسم لها مشفقًا ويشكرها، فتهرول مبتعدة.

لماذا أرسلت له مرسال ميعادٍ للمرة الأولى!؟ يفكر فيهتدي إلى أنه طبيعي منها أن تفعل؛ فميعاد بعد طول فراق مطلوب، وهي لن تأتي لتخبره بنفسها بالتأكيد.

الواقع أن قلبه يتقافز فرحًا لأنه سيلقاها وجهًا لوجه من جديد أخيرًا.... ويرتجف خوفًا في الوقت ذاته، لا يعلم مم ولا يحاول تحليله!

...

قبل الموعد بنصف ساعة كان هناك، واقفًا أمام الشجرة لا عليها، يرقب بجمود تلك الورقة المطوية المثبتة إلى جذع الشجرة. لا تطاوعه يده -تدعمها كل جوارحه- للامتداد نحوها وكشف محتواها؛ فالفحوى تبدو واضحة من الخارج، والمحتوى يُنذر بأكثر مما يستطيع تحمله.

ترتعش يده.. يرتجف قلبه.. تمتد كفه لتستند على الشجرة بمنأى كاف عن الورقة المرهوبة.. يلحق بها ظهره منسابًا نزولًا على الجذع الخشن، يزيح الحمل عن ساقيه اللتين أوهتهما فكرة أنهما لن ينثنيا فوق أفرع تلك الشجرة مرة أخرى!

...

t.me/book100100 تابعوا على

كانت العشرينية ووشاحها يَسحَران وحيدين فوق التلة؛ تصفي ذهنها من أجل استكمال الدرب.

تفكر.... لقد مر وقت طويل كفاية لتنسى حياتها قبل اعتناقها ذاك الدرب مع الوشاح، قصير كفاية لتقلق بخصوص استكماله.

تتلمس القماش الفضي شاعرةً أنها قد ولدتْ به؛ هو رفيقها الأوحد من قبل حتى أن تلبسه.

تطلعت إلى الأفق تستلهم منه المعاني باسمة، حين رأت ما احتاجت للحظات طويلة حتى تفهمته!

بعد ثوان كانت تركض كالمجنونة نزولًا نحو القرية تنادي في السكان بالخروج والاختباء بعيدًا. يهرعون من مساكنهم يسألونها ملتاعين عن الأمر، تهتف أن جيشًا من المعتدين في الطريق إلى القرية.. تولول النساء ورجالهم يسحبونهن والأطفال هاربين. إلى أين؟؟ تهتف (بثينة) مشيرة: «إلى السهل! إلى السهل!». يتبعون إشارتها تاركين من خلفهم كل ما دون أهاليهم. لم تدرك قبل اللحظة كم صارت مؤثرة وذات كلمة نافذة إلى ذلك الحد! تضطرب أكثر من عجيب أمرها؛ كيف تأمرهم جميعًا بالهروب والاختباء باقيةً هي!؟ هل ستواجه الجيش الجرار وحدها!؟ تنظر إلى الوشاح كأنها تسأله الإجابة، فلا يتبدى منه من جواب، لكنها تشعر في داخلها بما يدفعها على المواصلة.

اطمأنت إلى هروب الجميع من الغزاة، ثم التفتت مُواجهةً مأتاهم. دقائق تمر طويلةً طويلة حتى يظهرون. ترتعب لمشهدهم وكأنها قد عادت (بثينة) القديمة فجأة. تقول لنفسها أن هذا كثير.. كثير ومفاجئ! كيف حل هذا البلاء فجأةً ودون مقدمات!؟ تتمنى لو كانت تحلم؛ تلطمها اليقظة فتتمنى لو كانت حياتها كلها حلمًا طويلًا ينتهي الآن!

دقائق أقصر بجنون وكان مئات من المعتدين يصطفون في مواجهتها، يخرج من بينهم قائد أعور له هيبة طاغية؛ حدقت (بثينة) في وجهه بذهول طال، فارتسمت على وجهه ابتسامة تهكم عريضة.

- «المعتدي الشرير قد عاد لينتقم!»

تمتمت بها تحاول استيعاب كل المستجدات الصادمة. كانت لتفرك عينيها لولا أن العبث لن يزيدها إلا هزلًا في وجه الجيش الرهيب.

قبضت على وشاحها تلتمس هدايةً لتصرف، بينما بادر قائد المعتدين بالتقدم متلفتًا من حوله، ثم نظر إليها وقال متهكمًا:

- «هل علمتِ بقدومنا وقمتِ بإخلاء القرية حقًا!؟»

وأكمل بلهجة هزلية الإلقاء:

- «حسنًا ما فعلتِ.. كففتِ عن أهل قريتك البسطاء الكثير مما ما لم يكن أحدٌ ليتحمله!»

الآن تفرك عينيها؛ في أمل ساذج بدا لها لحظتها آخر الآمال.

ضحك المعتدي ساخرًا وأشار لجنوده ليشاركوه الضحك، ثم أنه نظر في عيني (بثينة) وقال متصرمًا:

- «الآن إليكِ بقية ما عليكِ فعله.. ستخلعين الوشاح وتضعينه أرضًا، ثم تهربين لاحقةً بأهلك.. وأنا أعدك أنني لن ألحق بكم لأوذيكم؛ فقط لأني لن أجني شيئًا من ذلك؛ كل أريده هو الوشاح والأرض الخالية»

رجفة باردة تغزو جسد (بثينة)، محدقةً في سطوة عينيه مازالت لا تصدق كيف انقلب السلام الهادئ إلى كابوس هكذا فجأة! رغم ذلك وجدت نفسها تهتف فيه فجأة:

- «والشجرة؟ ألا تريد الشجرة أيضًا!؟»

يذهل للحظة، ثم يرد ساخرًا:

ـ «أي شجرة!؟ هل تمزحين!؟»

ترتبك، ترتجف.. يخطو أولى خطواته تجاهها منذرًا ويكرر:

ـ «الوشاح على الأرض!»

تتراجع ذات الخطوة قابضةً على وشاحها بخوف. حرارة الموقف بخُرت حكمة الشهور الفائتة كلها في لحظات؛ لا تدري الآن ماذا تفعل، واشتداد الموقف يُعجزها حتى عن التفكير.

يخطو خطوته التالية، ومعها خطوتين من صفوف الجنوده دبًا مزيدًا من الهلع في قلبها.

ـ «الخطوة التالية ستكون فوق رأسك يا فتاة!»

تهتف بقوة الارتعاب:

ـ «ولماذا تريد الوشاح والأرض؟؟»

مزيد من الخطوات المتقدمة منه المتراجعة منها مجيبًا:

ـ «لأنهما لي بالأصل.. هذا الوشاح وهذه الأرض ملك سَلَفي منذ مئات السنين، وأنا الآن لا أغزوهما بل أستعيدهما.. أستعيد حقي وحق سلفي من قبلي»

مستمرةً في التراجع خطوةً بخطوة، تهتف راجيةً أن يتوقف:

ـ «لا نعرف ساكنًا لذي الأرض غيرنا منذ عشرات السنين، ولا نعرف غيرها لنا سكنًا»

يسارع في خطواته مرعبًا:

ـ «لا تحاولنّ المماطلة يا فتاة! واثقٌ أنك منذ لحظة اعتناقك الوشاح تَعين

جيدًا القوة الكامنة فيه. وهذه القوة هي حقي المسلوب الذي لن أتنازل عنه الآن مهما حدث!» (يصرخ فجأة) «توقفي عن التراجع واستسلمي الآن إذا أردتِ النجاة!»

تتوقف رغمًا عن إرادتها رعبًا، حتى أنها تنسى ساقها اليسرى في الهواء للحظات. تهتف باكية بآخر ما ملكت من أمل:

ـ «إذن لماذا لا تأخذ الوشاح وتترك الأرض؟»

يبطئ من خطواته، مادًا يده تسحب رمحًا طويلًا مسنونًا من ظهره، بينما يقول ببطء:

ـ «أوتعلمين؟ هذه المحادثة مسلية ليّ حقًا.. ودموع الرعب في عيني لابس الوشاح تملأ جسدي بنشوة عظيمة!»

يقلب الرمح بين يديه وتتشاهى لهجته:

ـ «لكني منذ علمتُ أن لابس الوشاح العجوز قد مات أخيرًا، وداخلي يغلي شوقًا لاعتناقه!»

يرفع عينين مليئتين بالشهوة إليها خاتمًا:

ـ «لذا أنا لن أعطيكِ إنذارًا أخيرًا حتى»

ويسدد الرمح نحوها هاتفًا: «فلتموتي!»

لم تصدق! لكن الأمر كان أسرع من أن تستغرق في اللاتصديق. صوت الرمح يشق الهواء! أغمضت عينيها وسقطت إلى الخلف، عالمةً أنه لا فائدة! لا نجاة!

قلبها ينبض بعنف.. بعنف.. لكنه لم يتوقف! لم تشعر بالرمح يخترق جسدها!

هل تفتح عينيها؟ تخاف؛ لعلها ماتت بالفعل، وهي تخشى أن تواجه تلك

الحقيقة!

ترهف أذنيها.. لكن لا صوت! حتى الرياح سكنت فجأة، ليسود صمت مطبق.... إلا من صوت قطرات تتساقط على الأرض!

فتحتْ عينيها بخوف، فصدمها مشهد الدماء المتناثرة على يديها وثيابها. لم تشعر بها! تتحسس جسدها هلِعة، حين تنتبه لآثار القطرات المتراميةَ أمامها، فتتبع أثرها حتى ذلك الجسد الذي صد عنها الأفق، وكذا صد الرمح القاتل، وقد اخترق المسنون صدره حتى كاد ينفذ إليها، لولا أنه قبض عليه حاجزًا إياه بيديه وجسده.

لم تحتج ثانيةً واحدة إضافية لتدرك أنه هو..

ارتعشت شفتاها وروحها، وأفرجت عيناها عن دموع ناهرة، دون وعي تمتمت بلوعة:

ـ «لـ... لماذا!!؟؟»

رغم أنه لم يلتفت، رأت ابتسامة كانت معهودة ترتسم على شفتيه، وبصوت سائل بالدماء أجاب:

ـ «تعلمين يا غاليتي..»

دموع ملتاعة منها، وصوت ذاهب!

يلتفت بنصف وجهه الباسم ويقول بصوت فعل بها ما لم يدركه الرمح:

ـ «لأنني ورمٌ حميد.. مستحـ...

قطع إنشاده الضعيف سعال دامٍ تمكن منه، سقط على ركبتيه، واندفعت يده ترتكز على الأرض لئلا يسقط أكثر؛ فقطعت هي ارتماءتها نحوه في منتصف الطريق، وتعلقت عيونها به جازعة.

جزّ على أسنانه يصارع الألم الفاتك، واندفع يتكلم بأقصى ما استطاع من

سرعة، دون حتى أن يكمل التفاتته إليها، وكأنما أراد إفراغ كل ما بداخله من بوح فيما ارتآه متبقيًا له من لحظات قصيرة.

ـ «خطابكِ الذي لم أقرأه أبدًا كان كافيًا لإذواء أملي، لكنه كان أقل بكثير مما تحتاجينه لإذواء اهتمامي لأمرك» (شهقة!) «تعلمين يا (بثينة)؟ أنتِ أزلًا لم تتفوقي على مهاراتي في الاختباء، فقط أنا يومًا ما جعلتكِ تشعرين بذلك.. لكني منذ لحظة استلامي الخطاب لم أكررها»

يتحدث بسرعة محمومة تنافي سكون اللحظة، يتيه أكثر كلامه لا تدركه، لكنها لا تملك له مقاطعة، ولا غيرها إلا البكاء الصامت وخفقان القلب الجارف! يسقط على جانبه، فتقفز بذراعيها إليه تسند رأسه وتمسك بذراعه راهبة.

ـ «سنتان إلا قليل وأنا أراقبك من بعيد، أدعمك بقلبي وأوهم نفسي أنني أحرسك.. اعتزلتُ أتعلم كل ما اقتضاه الأمر لحراستك، مم؟ لم أعرف. لكني وهبتُ نفسي لعهدي الذي نقشتُه في كلمات الأغنية منذ زمن حتى صار غايةً لحياتي، اعتقتُه كما اعتنقتِ أنتِ الوشاح وأمانته»

يداه الممزقتان تنزفان وترتعشان أمام عينيها العاجزتين..

«كنتُ أفكر أنكِ لو علمتِ بما اعتنقتُ لرميتني عفوًا بالسفه.. لكني كنتُ أقول دومًا لنفسي (بثينة اختيرت لأمانة الوشاح، لماذا لا أكون أنا أيضًا قد أختِرت لأمانة حراسة أمينة الوشاح!؟)؛ أقولها وأبتر؛ مخافةَ أن أستشعر لها وهمية!»

يَفرُغ الكون إلا منهما، تقبض أكثر على ذراعه متشبثة، ترقب ذروة كابوسها تتجسد في جسده المنتفض متشبثًا بروحه، يأبى خروجها قبل حتى أن يكمل وصيته الأخيرة المستحقة.

«أبقيتُ على أمل محتضر أن تأتي الفرصة لأثبت لكِ صحة مسلكي فأستعيدك،

لكن...» (يضحك باكيًا) «ذلك اللعين لم يمهلني الخيار!»

تنقطع الدماء عن مخها، يغالب بكاءه وآلامه مستطردًا:

«أيًا يكن غباء أو جدوى ما فعلت، فقد فعلتُه من أجلك، ولأجل العهد الذي قطعتُه على نفسي لحمايتك حتى النهاية؛ ولذا فأنا أستحق منكِ وصية أخيرة ووعدًا مماثلًا»

كلماته تتحول لطلاسم من فرط سرعتها وتيهه، لكنها على النقيض صارت تفهمها وتعيها أكثر. ترقبه باكيةً فيفصح:

«عديني ألا تموتي.. عديني أن كل ما فعلتُه من أجلكِ وإن كان سفهًا لن يضيع هدرًا.. عديني ألا تموتي عديني..»

يخرج صوتها أخيرًا منتحبًا، تبلل دموعها وجهه وتختلط بدماء صدره.

ـ «لا يا (ضياء) أرجوك! أرجوك أنتَ لا تمت! أنا آسفة! أنا لـ...»

وتقطع كلماتها محدقةً في عينيه الساكنتين بلا بريق!

كيف يفارق الحياة بهذه السرعة وهي حتى لم تكمل اعتذارها له!!؟ تصرخ تصرخ في مشاعر مختلطة، رعب وألم وندم وخوف، ورجاءٌ أخير أن يكون كل ذلك الجنون حلمًا أو وهم.

ـ «ماذا حدث للتو!؟»

ببطءٍ جامد تلتفت نحو مصدر الصوت، وقد نسيتْ أمر صاحبه تمامًا!

كان قائد المعتدين يقف ممسكًا بوجهه في ارتباك، وجنوده جميعًا من خلفه ليسوا بأيقظ حالًا!

أزال يده عن عينيه، ليفاجئه تبدل المنظر أمامه. جثة شاب نائلة رمحه بين يدي الفتاة وكأنها ظهرت من العدم! «ماذا حدث بالضبط!؟»

تجاوز شعوره بعدم الفهم إلى القلق، ليهتف في جنوده أن أفيقوا! هزوا

رؤوسهم عفوًا فتساقطت عنها بتلات حمراء! ضاعف مشهد تساقطها البطي، أمام عينيه قلقه إلى فزع. استدار إلى (بثينة) من جديد وهتف في جنوده:

ـ «أحضروا الوشاح واقتلوها!»

اندفعوا مشهرين خناجرهم ورماحهم، لكنهم أُوقِفوا بعد خطوتين وأقل فقط!

حدقوا في الأرض من تحتهم إذ واتتها هزة لحظية، بينما حدّق قائدهم بهلع في قبضة (بثينة) المرتكزة على الأرض الصلبة بثبات.

رفعت إليه عينين شاخصتين، ونبرت بصوت ذي صدى:

«لقد اختبأ في الظلال لعامين لأجل إيفاء عهده بحمايتي.. وأنتَ تنتظر مني الآن أن أخلف عهده الأخير وأموت!؟»

ألجم الوقع لسانه، حتى جاهد ليشير إلى جيشه المأخوذ بدوره، وقبل أن يتحرك لسانه بأمر، كانت صرخة (بثينة) تدوي في وجوههم تكاد تمزق لحمها من عنقها:

«لاااااااااااااااااااا!!»

ورفعت يديها عاليًا، لتهوي بهما على الأرض فتزلزل المحيط كله من تحتهم.

صرخ المعتدون ينشدون الهرب، بينما تهته قائدهم مُرتاعًا:

ـ «هذا لا يمكن! هذا... هذا غير ممكن!»

سالت خيوط دماء من عيني (بثينة) الشاخصتين، تطلق صرخةً أعلى وأشد، أتبعتها بضربة أعنف على الأرض، لتتفجر الأرض من تحتهم قاذفةً بفُتاتٍ كالصخور يطوح بما ومن عليه إلى السماء!

راقب الأعور كابوسه يرتد في وجهه، وجنوده يتطايرون من حوله صارخين، فتقافز يناور مقذوفات الأرض الجنونية هاربًا.

ثم توقف، وجز على شفته حتى أدماها، فالتفت نحو (بثينة) المواصلةِ صراخها المدوي باطراد، وردد:

ـ «ليس كل مرة!»

وسحب خنجرًا مسنونًا من جانبه مُعكسًا اتجاه ركضه نحوها. لن يمكنه رميه من تلك المسافة؛ صراخها العاتي وحده قد يُحيده عنها! يجب أن يغرسه بنفسه في عنقها وينتزع الوشاح عنها. إنه الظفر أو الموت!

يحتاج فقط لعشر قفزات ويبلغها..

يناور طلقة حجرية تنفجر من أمامه.. تسع!

أخرى من تحته، يُطعمها أحد جنوده مُثلثًا.. ثمان!

قفزتان أخرتان.. ست!

ظلال كبيرة تظهر على الأرض المحطمة من حوله وتحته فجأة! هذا...!!؟

وانسحق جسده تحت إحدى المقذوفات المنهالةِ عودًا من السماء، تدفن من تبقى من المعتدين تحتها.

استمر صرخة (بثينة) بلا توقف أو وعي بما حدث، حتى راح صوتها، وسقطت أرضًا تلهث.

مرت دقيقة أو يزيد حتى تم للمكان السكون؛ و(بثينة) تراقب بأعين تائهة كل الدمار الرهيب من حولها. مزيدٌ من الدقائق حتى استطاعت الاستناد على يديها ورفع رأسها، تجول بعينيها لا تكاد تصدق كل ما حدث، والوشاح المعفر على كتفيها يُطمئنها أن الكابوس قد انتهى.

مُنكرةً عليه مدت يدها تخلع الوشاح فتلقيه إلى جانبها، لتفلت من ربطته

تابعوا صفحة كتب على t.me/book100100

العتيدة تسع زهرات حمراء ذابلة حد التفتت، لامست أحدها كفها فأرجفتها.

مدت أنامل مرتجفة إلى البتلات الميتة، لتقطع عليها الطريق لقطة جثة الأعور المحطمة تنتزع ناظريها.

اتسعت عيناها تحدقان..

تشنجت ملامحها..

وانهارت تبكي بالتياع.

كان ما سقط فوق الأعور.... هي جثة ضياء!

وفتحتُ عينيّ!

أحدق في سقف غرفتي المزين بالنجوم اللامعة، ونور صباح جديد ينساب إلى محيطي كالسحر.

ابتسمتُ ابتسامة جديدة على شفتيّ، وأنا أستعيد كل مررتُ به في ساعات الخيال القليلة الفائتة.

لطالما أثرت فيّ التضحيات كما لا يفعل سواها، ورأيت فيها أعظم وأشجع فعل في الوجود. واليوم أستيقظ مدركًا أبعادًا جديدة لمعنى التضحية العظيم.

ربما تضحي من أجل أهلك، مبدئك، حبك، كرامتك..

تضحي بفرصتك، بمستقبلك، بجسدك، بروحك، بوجودك..

مختارًا، مجبرًا.. مستعدًا، عافيًا..

مهما كانت دوافعك، شكل تضحيتك، ظروفها، مآلها..

هي تضحية نبيلة كُتب لها الخلود ولو في صفحة خيالية منسية من كتاب التاريخ، لكنها أعظم صفحاته وأصفاها.

أبعادٌ لم أكن لأدركها لولا استضافتي لأولئك العظماء.. الذين أردتُ منحهم السعادة، فكانوا هم من...

وفتحت كفي متطلعًا إلى الزهرة الحمراء الساكنة فيها، مكملًا:

«منحوني كل ما كنتُ أحتاج».

وقمت من سريري مستعدًا ليوم أفضل بكثير :)

* تمت بحمد الله *

استمع لأغنية (ورم حميد) كاملة

على صفحة (ألف قصة - إسلام علي):

facebook.com/1000StoriesBooks

صفحة الرواية على Goodreads:

goodreads.com/book/show/46929607

تابعوا على t.me/book100100

◄ التعريف بالكاتب ►

إسلام علي (ISCOTO)

* كاتب، محرر أدبي، وناشر.

* أحد مؤسسي رابطة ودار فانتازيون، والمدير الفني للدار.

* صانع أفكار ومؤسس عدد من المشاريع الأدبية، الثقافية، والترفيهية.

* له عدة مقالات منشورة على شبكة الإنترنت، حول (أدب الفانتازيا)، (أساطير الحضارات)، (أدب الطفل)، (أساسيات اللغة للكتابة)، (فنيات الكتابة)، (الأدب النظيف)، و(كواليس النشر).

* أعماله المنشورة:

- (فانتوبيا) [بالاشتراك مع إلهامي مجدي] - كوكتيل أدبي فانتازي - دار الفؤاد.

- (صحتك مع فادك: حواديت الطب والصيدلة) - مجموعة قصصية توعوية - مؤسسة بداية.

إلى جانب المشاركة في عدد من الكتب الجماعية، مثل (عن الخيال نتحدث)، (فانتازيا الثورة)، و(ثلاثية زودياك).

- (قالهالا: ألف بطل)، وهي الرواية الأولى من متسلسلة (ألف قصة).

* للتواصل مع الكاتب: facebook.com/ISCOTO

My
Review

هل أعجبك الكتاب؟ نرشح لك أيضًا

ومضت بقعة ضوء سحرية في سماء فالهالا الصافية، تكشّفت عن (فليش) الصغير، والذي دار ببصره في الأنحاء يستعيد استكشافها.

رأى (أندي) و(نضال) يتمشيان سويًا إلى جوار (وادّي) و(دل)، يتبادلان الحديث والابتسام ويتلمّسان ملامح العناق الخالد.. ذاك (ضياء) هناك، تحت شجرة لا عليها، يقرأ في دفتر حكايات قديم. لا يمكن ألا تلاحظ (نور) بجسده العظيم، يجالس (عماد) و(بشير) والمحارب النوردي. انتبه الأخير لحلول (فليش)، فأشار له باسمًا بالاقتراب.

بخفة هبط (فليش) إلى مجلسهم، فتبادلوا تحية رفاق قدامى، وقال (نور) بابتسامة واسعة:

ـ «زيارة أصدقاء أم ذات مآرب يا رفيق؟»

ابتسم (فليش) بارتباك وقال بصوته الرفيع:

ـ «بل ذات مآرب في الواقع.. عليّ تذكر أي شيء عن ماضيّ.. وأظن أن التواجد معكم قد يساعدني على ذلك.. حتى لو كان ماضيّ موّهًا كما أخشى؛ فأنا أحتاج لأن أتذكر من أنا حقًا»

لحظة صمت ثم تبادلوا الإيماء تفهمًا، بينما تلفت (فليش) حوله متسائلًا:

ـ «أفتقد بعض الرفاق هنا.. أين (ويليام) و(سعد)؟»

اتسعت ابتسامة (نور) أكثر مجيبًا:

ـ «(ويليام) كانت له مهمة هنا قضاها وعاد لعالمه وحياته.. و(سعد) لديه قصة مقطوعة عاد ليستكملها»

انتقلت ابتسامته مرتعشةً إلى فم (فليش)، الذي عاد يسأل:

«ماذا عن....؟ آآآ.. صديقنا الذي لم يختر اسمه بعد!»

وضحك (نور).

أغمضت (نبيلة) عينيها مستلمةً للنوم، لتعود فتفتحهما في عالم مختلف.

كانت واقفةً على بداية ممر مسوّر بعواميد خشبية ملأها نباتات متسلقة زاهرة، في آخره ظهر شاب، يتقدم نحوها بابتسامة هادئة، تزين ملامح تحفظها جيدًا لكنها تراها للمرة الأولى!

توقف على بعد خطوات منها، وقال بابتسامة خائفة:

- «هل تعرفين من أنا؟»

سالت من عينها دمعة حبيسة منذ الأزل، وأومأت برأسها له بسعادة.

فانتازيون للنشر والتوزيع

facebook.com/FantasiansPub

Fantasians4@gmail.com

002-01094461896

رابطة (فانتازيون)

facebook.com/Fantasians

facebook.com/groups/Fantasians

ڤالهالا

ألف بطل

إسلام علي

لطالما أثرت في التضحيات كما لا يفعل سواها، ورأيت فيها أعظم وأشجع فعل في الوجود. ربما تضحي من أجل أهلك، مبدئك، حبك، كرامتك.. تضحي بفرصتك، بمستقبلك، بجسدك، بروحك، بوجودك.. مختارًا، مجبرًا.. مستعدًا، غافلًا.. مهما كانت دوافعك، شكل تضحيتك، ظروفها أو مآلها.. هي تضحية نبيلة كُتب لها الخلود، ولو في صفحة خيالية منسية من كتاب التاريخ.. لكنها أعظم صفحاته وأصدقها.